



الفصل الثالث: رؤية الجاحظ في عصر العباسيين الأوائل

أولاً: الدعوة وإعلان الخلافة العباسية

ثانيا: التوريث الأسري (التسلسل التاريخي للعباسيين الأوائل)

ثالثاً: صورة الخلفاء العباسيين وسياستهم

أولاً: الدعوة وإعلان الخلافة العباسية

لقد اعتمد العباسيون الأوائل في تنظيم حركتهم على التنظيم السري، وذلك بسبب ما تعرض له آل البيت من نكبات إبان العهد الأموي، وما عمدت إليه الدولة الأموية من القضاء على الحركات العلوية وعلى زعمائها بشكل خاص، وتقوم الدعوة السرية حول إمام من آل البيت يدير دفة هذه الحركات السرية، ويرعى هذه التنظيمات ويوجه النقباء والدعاة ويقودهم[1].

لم يتناول الجاحظ الكيفية التي كان عليها التنظيم السري للدعوة العباسية. لكنه أشار بصورة مقتضبة عن حال أبي العباس في الكوفة، وحال الدولة العباسية في بدايتها بعد سقوط الدولة الأموية عندما عرض موقف سعيد بن عمرو بن جعدة[2] مع أبي العباس عندما حمل رأس الخليفة مروان بن محمد[3] إليه "**قام سعيد بن عمرو، فأكب عليه قياماً، ثم قال: هذا رأس أبي عبد الملك، خليفتنا بالأمس، فوثب أبو العباس، فطعنه في حجره. وانصرف ابن جعدة إلى منزله، وتحدث الناس بكلامه، وقالوا: عرضتنا ونفسك للبوار. فقال: اسكتوا. قبحكم الله الستم الذين أشاروا علي بالأمس بحران بالتخلف عن مروان، ففعلت في ذلك غير فعل أهل الوفاء والشكر؟ وما ليغسل عني عار تلك الفعلة إلا هذه. وغدا الشيخ، فإذا هو بسليمان بن مجالد[4]. فلما بصر به، قال: يا ابن جعدة الا أبشرك بجميل رأي أمير المؤمنين؟ إنه ذكر في هذه الليلة، ما كان منك، فقال: والله ما أخرج ذلك الكلام من الشيخ إلا الوفاء، ولهو أقرب منا قرابة**"[5] فالرواية تكشف حال الأمويين في كنف الدولة العباسية وكيف غدت رموزها موضع شبهة وتوجس، كما توضح موقف الخلفاء العباسيين من الدولة الأموية وإن كان الجاحظ يقف مدافعا عن السلطة العباسية.

١- الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٣٠٥، ٣٠٧. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٧، ص ٢٧٠. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٤١- ١٤٤. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص٢٨. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ٣، ص١٠٠- ١٠٢.

٢- قدم البصرة داعية لمروان بن محمد في الفتنة بعد قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وإظهار مروان الطلب بدمه، فلم يتم له ذلك، وجعل يعدهم الأموال ويمنيهم أن تأتيهم الأعطية من قبل مروان. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٨، ص ٢٣٥.

٣- مروان بن محمد بن مروان بن الحكم يقال له مروان الجعدي، كان بنو أمية يكرهون الإماء لأنه بلغهم أن ذهاب ملكهم على رأس أمة ومروان أمة كردية وقيل له الجعدي لأن جعد بن درهم الزنديق غلب عليه. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ٥٤

٤ - سليمان بن مجالد بن أبي مجالد الوزير، من أهل الأردن، كَانَ أخا أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين من الرضاعة، وَكَانَ معه بالحميمة من أرض الشام فلمّا أفضت إليه الخلافة قربه وأدناه، وَكَانَ معه كالوزير، وقدم معه بغداد حين بناها وولاه الريّ وولي لَهُ الخزائن إلى حين وفاته. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، ص١١، ٢٣٤، ٢٦٨. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص١٣٨.

٥- التاج (منسوب إلى الجاحظ)، ص ٧٥

كما وردت إشارات مقتضبة عن بعض الدعاة مثل حديثه عن سليمان بن كثير الخزاعيّ وهو أحد النقباء الذين أرسلهم إبراهيم الإمام إلى خراسان[1]، كما أشار إلى أبي مسلم واصفا إياه بأنه "**صاحب الدعوة، وكان حسن الألفاظ جيد المعاني**"[2].

أكد الجاحظ على دور العرب في الدعوة العباسية وأنها قامت على أكتافهم بقوله: "**ولم يقض على عمال الأمويين وخليفتهم الأخير مروان بن محمد إلا عرب الدعوة. ولم يفتح الهند إلا موسى بن كعب، ولم يفتح افريقية إلا محمد بن الأشعث وكلهم عرب أقحاح**"[3]. كذلك فإن الدعاة كانوا من العرب كما أكد الجاحظ ذلك بقوله " **وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب، ومن صليبة هذا النسب** "[4]. وقد وردت هذه الرواية عند الجاحظ في أكثر من مصنف هادفا من وراء ذلك إلى تأكيد عروبة الدعوة العباسية[5].

كما لعب العرب في خراسان الدور الأكبر في القيام بالدعوة "**وخرج أبو مسلم**[6] **في يومه من الكوفة ومضى على وجهه إلى خراسان وقد قوى بها أمر المسودة جدا وانتشرت الدعوة العباسية إلى أن صار في كل بلد من شيعة بنى العباس**"[7] والجاحظ لا يختلف معهم في ذلك إذ يؤكد على دور العناصر العربية في خراسان " وذكر أن الخراساني يقول: **نحن النقباء وأبناء النقباء، ونحن النجباء وأبناء النجباء، ومنا الدعاة، قبل أن تظهر نقابة، أو تعرف نجابة**"[8].

---

١ ـ الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ١٩٠.

٢ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص٧٩.

٣ـ الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٧

٤ ـ المصدر نفسه، ص ٤٨٣

٥ ـ الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٨١. هياجنه، الجاحظ مؤرخا، ص ٩٥.

٦ـ عبدالرحمن بن عثمان الخراساني(ت:١٠٠ـ ١٣٧هـ/٧١٨ـ٧٥٥م) ظهر بمرو وكان الوالي على خراسان نصر بن سيار، نائب مروان بن محمد فكان ظهوره يومئذ في خمسين رجلا. وآل أمره إلى أن هرب منه نصر بن سيار قاصدا العراق. وصفا إقليم خراسان لأبي مسلم، في ثمانية وعشرين شهرا. انظر: الطبري، تاريخ، جـ٦، ص ٤٠٥ و جـ٧، ص ١٢٩، ١٩٨، ٢٢٧، و ٢٢٩، ٢٤٤، ٢٥٣ و ٢٧٠ و ٢٧٧ و ٢٩٢، ٤٧٩. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٠، ص ٢٠٧. ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ ٣، ص ١٤٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٦، ص ٤٨.

٧ـ العمراني، الإنباء، ص ٥٩

٨ـ الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٧

ويشير الجاحظ إلى خراسان ويعدها المكان الذي انطلق منه العمل العسكري ضد بني أمية بعد أن انتهت فترة التخطيط السري، فانطلقت الدعوة من خراسان التي هي منبع الدعوة العباسية "أهل خراسان الذين هم أهل الدعوة، ومخرج الدولة"[1]

وفي محاولة منه لإثبات مشاركة العرب مشاركة فعالة في أحداث الثورة، وضّح مفهوم أهل خراسان فقال أنه ليس اصطلاحا عرقياً بل حضارياً فالاصطلاح لا يعني العجم من سكان خراسان بل يعني العرب وغير العرب المستوطنين هناك[2] "وذكر أن الخراساني يقول: نحن النقباء وأبناء النقباء؛ ونحن النجباء وأبناء النجباء، ومنا الدعاة، قبل أن تظهر نقابة، أو تعرف نجابة، وقبل المغالبة والمباراة، وقبل كشف القناع وزوال التقية وزوال ملك أعدائنا عن مستقره، وثبات ملك أوليائنا في نصابه. وبين ذلك ما قتلنا وشردنا، ونهكنا ضربا وبضعنا بالسيوف الحداد، وعذبنا بألوان العذاب. ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد، وأبدنا العدو بكل واد. ونحن أهل هذه الدولة، وأصحاب هذه الدعوة، ومنبت هذه الشجرة. ومن عندنا هبت هذه الريح. والأنصار أنصاران: الأوس والخزرج نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في أول الزمان، وأهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان. غذانا بذلك آباؤنا وغذونا به أبناءنا وصار لنا نسبا لا نعرف إلا به، ودينا لا نوالي إلا عليه"[3].

أما عن موقف الموالي أو ما عرف بالأبناء[4] من الدعوة العباسية فقد أشار الجاحظ إلى موقفهم في دعم الدعوة العباسية، كما وقفوا إلى جانبها ضد المعارضة[5]، وكذلك في الحرب بين الأمين والمأمون، ويشير الجاحظ إلى فخر الأبناء بمواقفهم مع الخليفة الأمين " ونحن أصحاب الفتك والإقدام، ولنا بعد التسلق، ونقب المدن، والتقحم على ظبات السيوف وأطراف الرماح، ورضخ الجندل، وهشم العمد، والصبر على الجراح وعلى جر السلاح إذا طار قلب الأعرابي، وساء ظن الخراساني"[6].

كما يرى أن فئة الموالي في العصر العباسي تشكل مزيجاً من أجناس مختلفة عربية أو عجمية، وكان رباطها بالخليفة العباسي أقوى من رباط الانتماء "وقد كان المنصور، ومحمد بن علي، وعلي بن عبد الله، يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والإيناس، لا يبهرجون الأسود لسواده، ولا

---

١ - الجاحظ، البغال، ص ١١٨.

٢- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١٥

٣- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٩.

٤- الأبناء هم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن لما جاء يستنجده على الحبشة، فنصروه، وملكوا اليمن، وتديروها، وتزوجوا في العرب، فقيل لأولادهم: الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٢، ص٢٢٥.

٥- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١٧

٦- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٨٥

الدميم لدمامته، ولا ذا الصناعة الدنية لدناءتها. ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم، ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنائزهم، وذلك بحضرة من العمومة، وبني الأعمام والإخوة "[1] .

لم يفرد الجاحظ رسالة مستقلة في تناول موضوع دعوة بني العباس، فرسالة مناقب بني العباس تناولت المأثر والمميزات التي اجتمعت للخلافة العباسية والتي جعلتها أكثر تفرداً للقيام بأمر الناس من الخلافة الأموية، كما تناول في الرسالة الخلفاء العباسيين بالمدح والثناء، فتحدث عن مؤسسي الخلافة مثل أبو العباس السفاح والمنصور، وكان عادته في رسائله أن يسكت عمن لا يعجبه من الخلفاء لكن نجده يشهر بالمهدي وهارون الرشيد بسبب موقفهم من المعتزلة، ويقفز للحديث عن المأمون وما اتصف به وخاصة تبنيه مذهب الاعتزال، وقد أشاد به كثيرا في الرسالة لا يزيد عليه إلا الواثق[2].

كذلك فإن رسالة العباسية التي لا تتجاوز الصفحات الخمس[3] ركزت على مسألة الميراث وحق آل البيت، وعلى الرغم من قصرها لكنها تعطي فكرة عن المضمون الذي كتبت من أجله. إنها تدور حول موضوع واحد يتمثل في حق العباسيين في الخلافة دون سواهم، وأن سياقها واحد هو الجدل وقرع الحجة بالحجة بين خصمين هما العباسيون من جهة وخصومهم العلويين من جهة ثانية، فقد أشار إلى ذلك الحق أنه جاء من وراثة العباس للرسول صلى الله عليه وسلم[4]. كما أكد من خلالها مفاخر العباسيين على الأمويين[5]" **انهم ملكوا بالميراث وبحق العصبة والعمومة، وأن ملكهم في مغرس نبوة وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان..."[6].** مروجا بأسلوبه الشخصي في أحقية الخلافة للعباسيين.

وإذا تجاوزنا رسالة العباسية فإن رسالة العثمانية[7] التي شرح فيها نظرية اتباعها في الحكم، وشيئا من التطور التاريخي للخلافة أفرد فيها الحديث عن صحة خلافة بني العباس،

١- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص٤٨٤.

٢ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٢٥- ٢٨.

٣ - يستبعد الباحث أن تكون رسالة بهذه الأهمية والمغزى لا تحتوي سوى على بضع صفحات، وقد أشار الكثيرون ممن تناولوا الجاحظ مثل جبر والسندوبي إلى هذه النقطة، ومن المؤكد أن الأجزاء الباقية من الرسالة فقدت، أو لم يتم كشفها حتى الآن ولعله في المستقبل تظهر هذه الرسالة التي من المؤكد أنها تحتوي على روايات عديدة حول دولة بني العباس. انظر: نوري، الجاحظ، ص ٣

٤- الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص ١٩٧.

٥ - نوري، الجاحظ، ص ٦

٦- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٠.

٧- اعتقد شارل بلا أن تناول الجاحظ للعثمانية أنه ذو ميول عثمانية بقوله: "وكان الجاحظ من مناصري العثمانية وألف كتابا فيها، ولعل ذلك من متناقضات هذا الكتاب الخصب" لكن غاب عن ذهنه أن الجاحظ عندما

مقدما الحجج والبراهين التي جلعت العباسيين أصحاب حق في تولي الخلافة[1]، وظهر ذلك جليا بعد أن تحولت الدولة إلى موقف مناوئ للعلويين الذين سبق وأن مدحهم في رسالة العباسية[2]، فهذا التقلب عند الجاحظ جاء مسايرا للتطور السياسي عند السلطة العباسية[3].

كما وضع الجاحظ رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة، إذ وضع القسم الأول في خلافة المعتصم ووجهها إليه فلم تصل إليه لأسباب لم يفصح عنها الجاحظ[4]. والقسم الثاني في خلافة المتوكل وجهها إلى وزيره الفتح بن خاقان، الذي قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م " **وكان المتوكل في مجلس خلوة، فوثبوا عليه، فقتلوه بأسيافهم، وقتلوا الفتح بن خاقان معه** "[5]. وهدف الجاحظ من الرسالة إلى تآلف قلوب أبناء الشعوب التي تشكل الدولة العباسية.

ومن خلال ما سبق من عرض للرسائل التي تناول فيها الجاحظ الدولة العباسية وخلفائها نستنتج أنه رسم صورة مشرقة لهم، فقد ولد في خلافة المنصور، وظهرت موهبته الفكرية والثقافية منذ عهد المهدي والهادي وهارون الرشيد، وبدأ في الاقتراب من السلطة منذ عهد المأمون، حتى صار أحد رجالها، كما أن إنتاجه الفكري الذي بدأ منذ نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي جاء انعكاساً للتطورات الحاصلة في تلك الفترة مثل مسألة الإمامة والقول بخلق القرآن[6] ومعارضة حزب الأمويين والتبري من معاوية[7] والتقرب من العلويين[8].

يتناول فرقة فإنه يتناولها كأنه فرد منها، يدافع عنها ويتبنى أفكارها ومعتقداتها حتى يخيل للقارئ أنه منها. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٥.

أضحت العثمانية منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي مجرد مدرسة فكرية تسير في خط معاكس للشيعة الرافضة، مسلمين بشرعية الخلفاء الثلاثة رافضين الاعتراف بشرعية خلافة علي بن أبي طالب. الزويري، الإمامة، ص ٦.

١ - نوري، الجاحظ، ص ٦.

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٣ - الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص ١٨٥. نوري، الجاحظ، ص ٤، ص ١٤.

٤ - الخرشة، أحمد غالب ورغدة علي. رسالة مناقب الترك(دراسة تحليلية نصية)، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٨، العدد ٤، الأردن: ٢٠١٢م، ص ٢٤٣.(سيشار إليه فيما بعد: الخرشة، رسالة مناقب الترك). الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٢١.

٥- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٤٦٨

٦ - الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص١٩٠. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٥١.

٧ - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٤. انظر: تحليل رسالة النابتة في مقدمة الدراسة ، وكذلك الفصل الثاني حول معالجة الجاحظ للأمويين.

٨ - الزويري، الجاحظ، ص ٨٤

كانت قضية أحقية بني العباس بالخلافة، قضية مهمة سعى الجاحظ في معالجتها، فقد ركز على مسألة قرابة العباسيين من الرسول صلى الله عليه وسلم وأن لهم على الناس حق الطاعة "**مر العباس بن عبد المطلب بنفر من قريش وهم يقولون إنما محمد من أهله مثل نخلة نبتت في كناسة**[1]**، فبلغ ذلك رسول الله صلى لله عليه وسلم فوجد منه فخرج حتى قام فيهم خطيباً ثم قال: أيها الناس، من أنا ؟ قالوا: أنت رسول الله. قال: أفأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، إن الله عز وجل خلق خلقه فجعلني من خير خلقه ثم جعل الخلق الذي أنا منهم فريقين فجعلني من خير الفريقين من خلقه، ثم جعل الخلق الذي أنا منهم شعوباً فجعلني في خيرهم شعباً، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً فأنا خيركم بيتاً وخيركم والداً وإني مباه لكم. قم يا عباس فقام عن يمينه، ثم قال: قم يا سعد فقام عن يساره فقال: يقرب امرؤ منكم عماً مثل هذا وخالاً مثل هذا** "[2].

ومن صور المناقب التي عمل الجاحظ على بثها بين الناس الإشارة إلى دورهم في بدايات الدعوة الإسلامية، مؤكدا على دور العباس في حماية الرسول صلى الله عليه وسلم بعد تفرق الناس عنه "**وقد كان العباس بن عبد المطلب جهيرا. وقد مدح بذلك، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين، حين ذهب الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول الله. فتراجع القوم، وأنزل الله عز وجل النصر وأتى بالفتح**"[3] وفي موضع آخر "**ويقال إنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس** "[4].

وينبه الجاحظ أن تمام دعوة بني العباس لأن من قام بها لا ينقصه الحسب والنسب "**فإنما ذهب إلى أن الدعوة إذا قام بها خامل الذكر والنسب فلا يحسده من أكفائه أحد وأما إذا قام بها مذكور بيمن النقيبة، وبالظفر المتتابع، فذلك أجود ما يكون، وأقرب إلى تمام الأمر**"[5].

كما عمل الجاحظ على تأكيد هذا الحق لبني العباس من ذلك قوله على لسان مسلم بن الوليد الأنصاري[1] :

١- موضع القمامة، وفي رواية الطبري "لقد مكث أيوب عليه السلام مطروحا على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا" تاريخ، جـ ١، ص ١٩٥.وفي رواية الذهبي "تتكلم بهذا الكلام، ونرى منك أشياء قال: احسبوني درة وجدتموها على كناسة" تاريخ الإسلام، جـ ١٣، ص ٤٨٣.

٢- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٦٤.

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١١٩.

٤- المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

٥ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٣، ص ٤٨.

"لولا يزيد وأيام له سلفت ... عاش الوليد مع الغاوين أعواما

سل الخليفة سيفا من بني مطر ... يمضي فيخترق الأجسام والهاما

إذا الخلافة عدت كنت أنت لها ... عزا وكان بنو العباس حكاما"[2]

فالعم في نظرهم بمنزلة الوالد، وهو أقرب الناس إليه، وهو وريثه في العصبات. وبهذه الحجة احتج العباسيون على العلويين في تقدمهم عليهم بحق الخلافة.[3]

كما عرض من الصفات ما يؤهلهم لتولي الخلافة، فوصفهم بالشجاعة والفروسية، ويفهم من موقفه امتداح عصر العباسيين الذي يرى أن أمتاز بالحق والعدل والمساواة[4] "وزعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم أحد من ولد العباس بالملك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية"[5]. من ذلك تصويره موقف العباس من أبي سفيان، وفضل العباس عليه في دخوله الإسلام وفي تأمينه "...على أنه إنما أسلم على يد العباس، والعباس هو الذي منع الناس من قتله وجاء به رديفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه وينوه به. وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهود، ويوم حنين غير مجحود"[6]. وفضل العباس يعني فضل العباسيين على الأمويين عامة، إذ أن أبا سفيان هو كبير بني أمية، ودخوله في الإسلام على يد العباس هو فضل ليس بعده فضل، والجاحظ يلمح هنا إلى فضل العباسيين على الأمويين بصورة يلمزهم فيها.

ويشير الجاحظ إلى ما عرف عن عبد الله بن العباس من جزالة الرأي "ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللهم أعطه الحكمة، وعلمه التأويل "[7] كما أكد الجاحظ على جزالة رأي العباس في موضع أخر بقوله: "كانت قريش تعد أصل الجزالة في الرأي العباس بن عبد المطلب "[8]

١- مسلم بن الوليد الانصاري(٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م) لقب بصريع الغواني فعرف به ، أول من أكثر من البديع وتبعه الشعراء فيه. كان من أهل الكوفة ونزل بغداد. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٣، ص ٩٦. المرزباني، نور القبس، ص ٥٧.

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٧

٣- انظر: الواقدي، المغازي، جـ ٢، ص ٧٠٦، ٧١٣، ٧٢١، ابن خياط، تاريخ، ص ٨٥. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٢٣. أبو الفداء، المختصر، ص ٩٤.علي، المفصل في تاريخ العرب، جـ ٧، ص ٣٥٥.

٤ - عندما توافدت الشيعة على الإمام محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، وكان مستقرة بأرض الشام، بالحميمة، قالوا له: ابسط يدك لنبايعك على طلب هذا السلطان، لعل الله يحيى بك العدل، ويميت بك الجور. الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٣٢. نوري، الجاحظ، ص ٨

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٧

٦- - الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢١

٧- مجهول. أخبار العباس وولده، ص ٢٥

٨- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٨١

كما يقول " وإن كان الفخر بنبل الرأي وصواب القول، فمن مثل عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس؟ "[1] وهذا المعنى أكد عليه الجاحظ بقوله: " وفي الخطابة لم ينبغ أحد من أولاد أمية بن عبد شمس ولا يضارع أحد فيها علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس"[2].

تناول الجاحظ عبد الله بن العباس فهو يعلم أنه بمثابة الجذر لبني العباس، وبالتالي أراد أن يعطي الدعوة العباسية حجة وقوة فذكر حب عبد الله بن العباس للعلم، إذ دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يزيده الله علماً ومعرفة[3] " قيل لعبد الله بن عباس: أنى لك هذا العلم؟ قال: قلب عقول، ولسان سؤول"[4].

كما أشار إلى نبوغ عبد الله بن العباس في الخطابة وهو المعروف بغزارة علمه حتى لقب بالبحر "ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون: عبد الله بن عباس. قالوا: خطبنا بمكة، وعثمان محاصر، خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا "[5]. وهذا إشارة إلى موقف عبد الله بن العباس الذي اعتزل الناس في هذه الفتنة[6]، كما أشار له الجاحظ في موضع أخر بقوله " فغير الكنية فصيرها أبا محمد- ابن عبد الله وهو البحر وهو حبر قريش وهو المفقه في الدين المعلم التأويل، ابن العباس ذو الرأي وحليم قريش، ابن شيبة الحمد وهو عبد المطلب سيد الوادي، ابن عمرو وهو هاشم هشم الثريد وهو القمر سمي بذلك لجماله ولأنهم كانوا يقتدون به ويهتدون برأيه، ابن المغيرة وهو عبد مناف بن زيد وهو قصي وهو مجمع"[7].

كما عرض الجاحظ نبوغه في العلم "كان عبد الله بن عباس أول من عرف بالبصرة، صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران، ففسرهما حرفا حرفا، وكان والله مثجا[8] يسيل غربا، وكان يسمى البحر وحبر قريش. وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله: اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل "[9].

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٧

٢- المصدر نفسه، ص ٤٢٦

٣- مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٢٥.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٨

٥- المصدر نفسه، ص ٢٦٨

٦- الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ٦٨١

٧- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤١٩

٨ - يصب الكلام صبا شبهه بفصاحته وغزارة منطقه. لسان العرب، جـ ٢، ص ٢٢١. وردت في مؤلف أخبار العباس وولده " كان ابن عباس مثجا يتحدر غربا" ص ٣٤. كما وردت عند الذهبي بنفس اللفظ عند الجاحظ ويبدو أنه نقلها عنه، تاريخ الإسلام، جـ ٥، ص ١٥٩

٩- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٦٨. انظر: مجهول. أخبار العباس وولده، ص ٢٥، ٣٩، ٨٥.

لذا فإن الجاحظ يرى أن تقديم عبد الله بن العباس على الناس في عهد عمر[1] تؤكد أحقيته بتولي أمر الناس " **وما استقبل ابن عباس بذلك إلا لما رأى عمر قدمه على أهل القدم، ونظر إليه وقد أطاف به أهل الحرم، فاوسعهم حكما، وثقبوا منه رأيا وفهما، وأشبعهم علما وحلما**"[2]. وهذه لها بعد سياسي أخر يتمثل في مكانته بين الناس سواء كانت العلمية أم الفقهية وبالتالي فأبنائه نسلهم علم وفقه ومعرفة وحنكة.

أما على الصعيد السياسي، فقد حرص الجاحظ على إبراز دور عبد الله بن العباس في الخلاف الذي وقع بين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- ومعاوية بن أبي سفيان، فقد أشار إلى موقف ابن عباس من عزل معاوية عن ولاية الشام " **قال لعلي حيث أبى إلا عزله وقال: ما له عندي إلا السيف حتى يغلبه الحق، فقال له ابن عباس: وما لك عنده إلا السيف حتى يغلبك الباطل، فإن باطل معاوية يوم عزم على عزله لا يتخوفه على الخلافة ولا ظن أحد ولا دار في وهمه ولا خطر على باله أن الأمور ستنفتح وأن الحوادث ستنفتق بما تفتحت وتفتقت**"[3]. فقد عارض الجاحظ إمامة معاوية والسفيانية التي ترى أحقية معاوية في الخلافة، فظهور هؤلاء في الدولة العباسية كان السبب في أن يتصدى لهم الجاحظ مفندا حججهم بعدم صحة خلافة معاوية، فحججهم تمثل الفئة المؤيدة لخلافة معاوية[4].

وفي الحوار الذي دار بين ابن عباس ومعاوية بن أبي سفيان بعد أن تولي الخلافة[5]، يحاول الجاحظ إظهار عدم رضى عبد الله بن العباس عن خلافة معاوية "**قال معاوية: والله يا ابن عباس إن بابي لكم لمفتوح، وإن خيري لممنوح، ولا يغلق بأبي عنكم قلة ولا يمنع خيري عنكم علة...... فحسر ابن عباس عن ذراعيه فقال: يا معاوية فتحت لنا بابك حين قرعناه، ومنحتنا حين سألناه، ولئن أغلقت عنا بابك لنكفن أنفسنا عنك. وهذا المال فليس لك فيه إلا ما لرجل من المسلمين فعلى أي جهة أعطيتناه. ولولا حقنا فيه ما أتاك آت منا بجمله خف ولا حافر**"[6].

١- قال العباس لابنه عبد الله: إن هذا الرجل يدنيك- يعني عمر بن الخطاب- فاحفظ عني ثلاثا: لا تفشين له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا يطلعن منك على كذبة. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ١٢٠. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص٥٢٣

٢- الجاحظ، رسالة الحاسد والمحسود، ص ١٢٠

٣- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٨

٤ - الزويري، الإمامة، ص ٧٩.

٥ - عندما قدم معاوية المدينة بعد أن تولى الخلافة، قال مخاطبا ابن عباس: ما منعك أن تلقاني مع نظرائك من بني أبيك. قال: لم يقض ذلك. قال: فلعل الذي كان بيني وبين ابن عمك منعك. قال ابن عباس: هو ذاك. قال معاوية: فإن الله قد نصرني عليه لما علم من نيتي. قال ابن عباس: وما علم من نيتك يا معاوية، أن آمن وكفرت، ونصر وخذلت، وقام وقعدت. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٧٤.

٦- الجاحظ، الأمل والمأمول، ص ١٤.

ثم يعرج الجاحظ إلى تصوير العلاقة التي كانت بين الحسن وعبد الله بن العباس من خلال رأي الحسن نفسه في ابن عباس " **قيل للحسن: يا أبا سعيد، إن قوما زعموا أنك تذم ابن عباس. قالوا: فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: إن ابن عباس كان من الإسلام بمكان، إن ابن عباس كان من القرآن بمكان، وكان والله له لسان سؤول، وقلب عقول، وكان والله مثجا يسيل غربا**"[1]. ويظهر من هذا أن الجاحظ يهدف إلى تقريب العلويين منهم بعد أن أخذت الدولة العباسية ذلك النهج في خلافة المأمون[2].

أشار أيضا إلى شخصية علي بن عبدالله بن العباس[3] وهو أول شخصية عباسية كانت لها أهداف سياسية[4] بقوله: "**قال علي بن عبد الله بن عباس: من لم يجد مس الجهل في عقله، وذل المعصية في قلبه، ولم يستبن موضع الخلة في لسانه، عند كلال حده عن حد خصمه، فليس ممن ينزع عن ريبة، ولا يرغب عن حال معجزة، ولا يكترث لفصل ما بين حجة وشبهة** "[5] فمن لم يكن عقله أغلب خصال الخير فيه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه، فلم يجعل لغير الفطنة نصيبا من الخير ولا حظا في الصلاح لأن الإنسان لا يتغافل إلا عن شيء قد فطن له وعرفه[6].

كما أشار إلى ابنه محمد بن علي[7] الذي كان الشخصية الأساسية التي عملت وخططت عملياً لإقامة دولة بني العباس[8] بقوله: "**قال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس إني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله**"[10].

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٩

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٣- ولد علي بن عبد الله ليلة قتل علي بن أبي طالب في شهر رمضان سنة أربعين فسمي باسمه، وكان أصغر ولد عبد الله سنا، وكان يكنى أبا محمد، ويقال له: السجاد. ويقال: سمي باسم علي بن أبي طالب وكني بكنيته، فقال له عبد الملك بن مروان: لا والله ما احتمل لك الاسم والكنية جميعا فغير أحدهما، فغير كنيته فصيرها أبا محمد. انظر: مجهول، أخبار العباس وولده، ص ١٣٤. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ٥٨. ابن مسكويه، تجارب الأمم. جـ ٣، ص٨٦.

٤- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص.٣٤٤

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٩

٦ - المبرد، الكامل في اللغة، جـ ٤، ص ٢١.

٧- قال علي بن عبد الله: أكره أن أوصي إلى محمد خوفا من أن أشينه بالوصية. فأوصى إلى سليمان، فلما دفن، جاء محمد إلى سعدى ليلا فقال: أخرجي إلي وصية أبي. فقالت: إن أباك أجل من أن تخرج وصيته ليلا، ولكنها تأتيك غدا، فلما أصبح غدا بها عليه سليمان فقال: يا أبي ويا أخي هذه وصية أبيك. فقال محمد: جزاك الله من ابن وأخ خيرا، ما كنت لأثرب على أبي بعد موته كما لم أثرب عليه في حياته. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ١٦٠. انظر باقي الأخبار عنه في نفس المصدر ص ١٦١-١٦٩.

٨- العمراني، الإنباء، ص ٥٧.

وعند الحديث عن التخطيط السري الذي سار عليه العباسيون نجد أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب استغل التيار المستعد للالتفاف حوله من أجل استخدامهم في الإطاحة ببني أمية[٢]، ولما كبر أبو هاشم وشعر بدنو أجله وهو خارج من لقاء الخليفة سليمان بن عبد الملك، خشي أبو هاشم على نفسه، فانتقل إلى الحميمة[٣] من أرض الشام؛ حيث مر على بني عمومته العباسيين "علي السجاد[٤] بن عبد الله بن عباس"، وهناك وافته منيته، فأوصى إلى "محمد بن علي بن عبد الله بن عباس" بما أجمع عليه الناس وكاتبوه به، ثم انه دفع إليه الكتب التي كتبوها إليه، وقال له: " **أنت صاحب هذا الأمر، وهو في ولدك**"[٥] وكان ذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ/ ٧١٨م[٦]. إن الانطلاقة الأساسية لعمل العباسيين الجاد للإطاحة بالأمويين بدأت بعد هذا اللقاء التاريخي بين أبي هاشم وعلي بن عبد الله بن العباس (السجاد) في الحميمة[٧].

ومن مقر محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في الحميمة أخذ ينظم الدعوة، ويدير شؤونها ويرسل الدعاة والنقباء إلى الأقاليم المحددة وأهمها خراسان[٨] " **ولما دخلت سنة مائة بعث محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ميسرة أبا رباح[٩] إلى العراق، ومحمد بن خنيس[١٠]، وأبا عكرمة**

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٩

٢- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٣٢٣

٣- الحميمة بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام كانت منزل بني العباس، تقع في جنوب الأردن حالياً. الحموي، معجم البلدان، جـ ٢،ص ٣٠٧.

٤- علي بن عبد الله بن العباس كان يصلي كل يوم إلى كل أصل ركعتين، فكان يدعى ذا الثفنات. فكان يصلي كل يوم أربعمائة ركعة، ويقال: إنه كان يصلي ألف ركعة كل يوم. وكانت قريش تسميه السجاد، وإنما عرفوا عدد ما يركع أنه كان له خمسمائة أصل زيتونا، فكان يصلي كل يوم تحت كل شجرة ركعتين. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ١٤٣. ابن العمراني، الإنباء، ص ١٣٥

٥ - انظر: ابن سعد، الطبقات، جـ ٥، ص ٣٢٧. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٥، ص ٧٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ١٨٧. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٦، ص ٤٠٦.

٦- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٤٩

٧- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٤٨

٨- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٩

٩ - مولى بني أسد، كان ضمن وفد أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية على سليمان عندما استخلف، كما صار له دورا بارزا في دعوة بني العباس. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ٢٧٤، جـ ٤، ص ١١٤، ١١٦، ١١٧. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٦٦.

١٠ - كان ضمن ممن قام بالدعوة السرية، لم نعثر على ترجمة كاملة له وإنما شذرات فقط. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١١٥. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٣٦٨.

السراج[1]، وحيان العطار[2]، إلى خراسان "[3] وذلك عن طريق شبكة سرية متعددة الحلقات حملت اسم "دعوة آل البيت" وتجلت مقدرته في وضع هيكلية التنظيم السري الذي قام على الشعارات الدعائية من اختيار مركز الدعوة وشعاراتها والأمصار التي تنطلق منها وتحديد مقر الدعاة، ومهنتهم، وطريقة التعامل مع الناس[4].

فمن حيث مركز الدعوة فقد اختار الحميمة، ومن حيث الشعار فإنه نادى بشعار المساواة، والدعوة إلى الرضا من آل محمد، والإصلاح، أما الأمصار التي انطلقت منها الدعوة[5]، فإن محمد بن علي أمر الدعاة بالتركيز على خراسان، ومن حيث تحديد مقر الدعاة، فقد اتخذ الإمام العباسي الكوفة المعروفة بالولاء لآل البيت. وقد أشار محمد بن علي على دعاته أن يتعاطوا مهنة التجارة لإخفاء هدفهم عن السلطة، كما أوصاهم بنشر الدعوة بالحكمة[6].

نلاحظ أن الجاحظ لم يتناول المراحل التي مر بها التنظيم السري، بل يذكر مقتطفات بسيطة من ذلك حديثه عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الذي توفي سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م[7]، حيث أوصى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام " **إن أخاك إبراهيم الإمام حدث عن أبيه محمد بن علي أنه قال: لا يزال الرجل يزاد في رأيه ما نصح لمن استشاره، فكنت له يومئذ كذلك، وأنا لك اليوم كذلك**"[8]. بمواصلة المسيرة[9].

اتخذت الدعوة العباسية في فترة إبراهيم الإمام صورة أخرى غير التي كانت عليها قبل ذلك، فقد أصبحت أكثر تنظيماً، ولها مناطق نفوذ بالإضافة إلى وجود قادة ودعاة معروفين[10]،

---

١ - زياد بن درهم كبير الدعاة في خراسان الذي اختار اثني عشر نقيبًا. مجهول، أخبار العباس وولده، ص٢٠٣. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١١٦.

٢ - خال إبراهيم بن سلمة، كان ضمن النقباء الذين توجهوا إلى خراسان. مجهول، أخبار العباس وولده، ص٨٤. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٦٦.

٣- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٥٥

٤ - العش، الدولة الأموية، ص ٣١٧-٣١٨.

٥ - انظر: الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٦٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٣٨، ص ١٠٠ - ١٠٣. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٩، ص ٢١٣.

٦- فوزي، فاروق عمر. الخلافة العباسية، دار الشروق، الأردن: ٢٠٠٣م، جـ ١، ص ٣٥ وما يليها (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، الخلافة العباسية).

٧ - مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٢٣٩

٨- أطلق عليه الجاحظ لقب إمام هذا لما وصل إليه من الشأن فهو يرى أن الإمام يفرض نفسه على الناس بسيرته وأعماله ومواقفه وأقواله. البيان والتبيين، جـ ١، ص٩٠.

٩- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٦٥.

١٠ - العش، الدولة الأموية، ص ٣٢٠.

فمن قادتها أبو سلمة الخلال[1] في الكوفة[2]، وأبو مسلم الخراساني في خراسان[3] "**أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم، وأبو سلمة حفص بن سليمان. وأبو مسلم مولى الإمام، وعليهما دارت رحى الدولة، وتم الأمر واتسق نظام الملك**"[4] وكلف إبراهيم الإمام أبا مسلم الخراساني أن يكون رئيسًا للدعاة جميعًا في خراسان وما حولها "**ومنهم أبو مسلم صاحب الدعوة**"[5] كما كلفه بالجهر بالدعوة للعباسيين علنًا، وأن يعمل على جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموي[6].

بحلول سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، ومع تطور الدعوة العباسية دخل أبو مسلم "مرو"[7] عاصمة خراسان، وكاد أن يستولي عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك، وهنا أسرع الوالي الأموي على خراسان نصر بن سيار[8] يستغيث بمروان بن محمد ويطلب منه مددًا[9]، وينبه رجال الدولة إلى الخطر المحدق فيقول:

أرى خلل الرمادِ وميضَ نـــارٍ ويُوشكُ أن يكُون لها ضِـرامُ

فإن النار بالعودين تُذْكـــى وأن الحرب مبدؤها كـــــلامُ

١- أبو سلمة حفص بن سليمان الهمداني، مولاهم الكوفي.، ذو مفاكهة وأدب، وخبرة بالأمور، وكان صيرفيا انفق أموالا كثيرة في إقامة الدولة، وذهب إلى خراسان. وكان أبو مسلم تابعا له في الدعوة، ثم توهم منه ميل إلى آل علي عندما قتل مروان إبراهيم الإمام. فلما قام السفاح، وزر له. ثم كتب أبو مسلم إلى السفاح يحسّن له قتله فأبى وقال: رجل قد بذل نفسه وماله لنا. فدس عليه أبو مسلم من سافر إليه، وقتله غيلة ليلا بالأنبار، فإنه خرج من السمر من عند الخليفة، فشد عليه جماعة فقتلوه، وذلك بعد قيام السفاح بأربعة أشهر سنة اثنتين وثلاثين ومئة، في رجبها. وتحدث العوام أن الخوارج قتلوه. وكان يقال له: وزير آل محمد، وكان ينزل درب الخلالين فعرف بذلك. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٦٠. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٦، ص ٨.

٢- مجهول أخبار العباس وولده، ص ٣٧٦

٣- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٨٣

٤- الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٨٤

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص٩٠

٦- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٠٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢١٨

٧- الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٣٥٣، ٣٥٧.

٨ - نصر بن سيار(٤٦ - ١٣١ هـ / ٦٦٦ - ٧٤٨ م كان شيخ مضر بخراسان، ووالي بلخ. ثم ولي إمرة خراسان سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٧م، بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري، ولاه هشام بن عبد الملك. وغزا ما وراء النهر، وأقام بمرو. وقويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني مروان بالشام يحذرهم وينذرهم، فلم يأبهوا للخطر، فصبر يدبر الامور إلى أن أعيته الحيلة وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر من مرو سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م. ورحل إلى نيسابور، فسير أبو مسلم إليه قحطبة بن شبيب، وكتب إلى مروان وأخذ يتنقل منتظرا النجدة إلى أن مرض في مفازة بين الري وهمذان، ومات بساوة. الحموي، معجم الأدباء، جـ٥، ص٣١٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١٤٩-١٥٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٧، ص ٣٢٢.

قال الجاحظ: كان نصر من الخطباء الشعراء، يعد في أصحاب الولايات والحروب والتدبير والعقل وسداد الرأي. البيان والتبيين، جـ ١، ص ٦٢.

٩- الجاحظ، البغال، ص ٥٥.

فقلت من التعجب ليت شعري أيقـــــــاظ أمية أم نيـــــام[1]

والعامل الأساسي الذي يرى الجاحظ أنه من أسباب سقوط مرو وعدم قدرة نصر بن سيار على مقاومة أبي مسلم يتمثل في "أنه وإن كان والياً لأربعة خلفاء، فإنه كان مأموراً بمكاتبة صاحب العراق، وإن كان صاحب العراق لا يقدر على عزله، وقد كان يزيد بن عُمر[2] يخاف أن يُولى مكانة نصر بن سيار، أو مسنور بن عمرو بن عباد، فاحتال لمسنور، ولم تمكنه الحيلة في نصر"[3].

لم تلقَ استغاثات نصر بن سيار أذانا صاغية من بني أمية بدمشق فلم يدركوا الخطر المحدق بسبب انشغالهم بصراعاتهم في الشام "ما أذهب مُلك بني مروان؟ قال: ما زال ملكهم قائما حتى عميث عليهم الأخبار"[4]، وكذلك انشقاق زعماء الأمويين على أنفسهم، فلم يمدوا واليهم على خراسان بالمساعدة[5]، هنا أدرك أبو مسلم الخراساني أن الوالي الأموي لن يصبر طويلا، وأن "مرو" ستفتح قريبًا، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقض بهم على "مرو" ففتحت له، وهرب وإليها نصر بن سيار " وذلك أن نصر بن سيار، كان صاحب خراسان، قبل خروج أبي مُسلم وقوة أمره، إلى أن قوي عليه حتى هرب منه "[6] كان ذلك في سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م[7].

كما أن والي مروان على العراق يزيد بن عمر كان يرغب في الإطاحة بنصر بن سيار، لكن حقده عليه أعماه أن يدرك حقيقة أن سقوط مرو ما هو إلا مقدمة لسقوط العراق ومن بعدها دولة بني أمية وهذه الملاحظة أشار لها الجاحظ موضحا أن العداء بين والي العراق ووالي خراسان والتنافس على الولاية سبب في عدم إبصار الخطر المحدق بهم "فكان إذا كتب

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٤٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٣٠

٢ - يزيد بن عمر بن هبيرة(٨٧ - ١٣٢ هـ / ٧٠٦ - ٧٥٠ م)/ من ولاة الدولة الأموية. أصله من الشام ولي قنسرين للوليد بن يزيد. ثم جمعت له ولاية العراقين (البصرة والكوفة) سنة ١٢٨ هـ، في أيام مروان بن محمد. واستفحل أمر الدعوة العباسية في زمن إمارته، فقاتل أشياعها مدة. وتغلبت جيوش خراسان على جيوشه، فرحل إلى واسط وتحصن بها، فوجه السفاح أخاه المنصور لحربه، فمكث المنصور زمنا بواسط يقاتله، حتى أعياه أمره، فكتب إليه بالأمان والصلح. وأمضى السفاح الكتاب. وكان بنو أمية قد انقضى أمرهم، فرضي ابن هبيرة وأطاع. وأقام بواسط وعمل أبو مسلم الخراساني على الايقاع به، فنقض السفاح عهده له، وبعث إليه من قتله بقصر " واسط ". وكان خطيبا شجاعا، ضخم الهامة، طويلا جسيما. انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٣، ص٥٢. الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٧٨. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٣٧. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي(ت: ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت: ٢٠٠٣م، جـ ٢، ص ٤٠٥ (سيشار إليه فيما بعد: البكري، معجم ما استعجم).

٣- الجاحظ، البغال، ص٥٥.

٤- المصدر نفسه، ص ٥٥.

٥- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٥٢

٦- الجاحظ، البغال، ص ٥٥.

٧- الجاحظ، البغال، ص٥٥. شاكر، محمود. التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٧م، جـ ٥، ص٤٣(سيشار إليه فيما بعد: شاكر، التاريخ الإسلامي).

إليه بالرأي الذي يحسم به من أسباب قوة المسودة، كتب بذلك إلى يزيد، فكان يزيد لا يرفع خبره ولا يمده بالرجال، طمعاً في أن يُهزَم أو يُقتل، ونسى يزيد أن غلبة أبي مُسلم على خراسان، سببٌ لغلبته على الجبال، وإذا استحكم له ذلك، لم يكن له همة إلا صاحب العراق. فلما طوى أخبار نصر، سد وجه الرأي والتدبير على مروان، حتى كان الذي كان"[1]

تتابعت فتوحات أبي مسلم، فسقطت "بلخ"[2] و"سمرقند"[3] و"طخارستان"[4] و"الطبسين"[5] وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه على خراسان جميعًا، وراح يتطلع إلى غيرها. وكان كلما فتح مكانًا أخذ البيعة من أهله على كتاب الله-عز وجل-وسنة نبيه والرضا من آل محمد[6].

إن تسلسل الأحداث يدل على أن بني أمية كانوا مشغولين بالفتن الداخلية في آخر عهدهم وهذا ما نبه عليه الجاحظ بقوله: **"قيل لأبي مسلم: بأي شيء أدركت هذا الأمر ؟ قال: أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت. .. عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا ما زلت أسعى عليهم في ديارهم. ."**[7]، حتى عندما وقع في يد الخليفة مروان بن محمد كتاب من الإمام إبراهيم يحمل تعليماته إلى الدعاة، ويكشف عن خطتهم وتنظيمهم، كان مروان منشغلا بتوطيد سلطانه المزعزع وقمع الثائرين ضده.

اكتفى الخليفة مروان بن محمد بأن أرسل إلى القائم بالأمر في دمشق للقبض على إبراهيم بن محمد بالحميمة وإيداعه في السجن[8]، فظل به حبيسًا إلى أن مات سنة

١- الجاحظ، البغال، ص٥٥.

٢ - وسط خراسان وأكثرها خيرا وأوسعها غلة تحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم. الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٧٩.

٣ - تقع في بلاد ما وراء النهر، افتتحها قتيبة بن مسلم، في زمن الوليد، وصالح ملكها. الحموي، معجم البلدان، جـ ٣، ص ٢٤٦-٢٤٩.

٤ - ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد وهي من نواحي خراسان. الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص٢٣.

٥ - قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان، والعرب تسميها باب خراسان، الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص٢٠.

٦- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٣٧٠

٧- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٥

٨ - شك مروان بن محمد في أن القائم بأمر الدعوة عبد الله بن الحسن بن الحسن، فأقدمه إليه لكنه حلف له أنه ليس هو بل إبراهيم الإمام هو صاحب الدعوة في المشرق، فأرسل مروان بعد أن كشف أمر إبراهيم الإمام إلى عامله على البلقاء بأن يأتيه بإبراهيم الإمام، فأحضر وسجن ثم قتل ليلا ومعه عبد الله بن عمر بن العزيز. مجهول أخبار العباس وولده، ص ٣٨٧-٣٩٢.

١٣٢هـ/٧٥٠م[1]. لكن الجاحظ يشير أن مروان قتله بعد أن أدخل رأسه في جراب نورة[2] "وما صنع مروان بإبراهيم الإمام أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات"[3].

ولما علم إبراهيم بالمصير الذي ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه قد واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت في قبضتهم أوصى لأخيه "أبى العباس" بالإمامة وطلب منه أن يرحل إلى الكوفة مع أهل بيته؛ وينزل على داعي العباسيين بها وهو أبو سلمة الخلال، فهناك يكون في مأمن من رقابة الأمويين وسلطانهم[4].

في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وهناك في الكوفة وبعد وصول آل العباس إليها تمت مبايعة أبى العباس خليفة للمسلمين، حيث توجه أبو العباس إلى مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة، وألقى على الملأ خطبة كانت الإعلان الرسمي لقيام الدولة العباسية، وكان مما جاء في تلك الخطبة: "**زعم الشامية أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، شاهت وجوههم، بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم..... وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله، فاستعدوا أيها الناس، فأنا السفاح[5] المبيح والثائر المبير**"[6]. فكانت الخطبة مؤكدة على حق العباسيين في الخلافة، فالجاحظ يرمي إلى تأكيد ذلك الحق من خلال وراثة النبي صلى الله عليه وسلم.

في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م كان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين[7]. كان اللقاء على أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل وهو "نهر الزاب الأعلى". وكان يقود جيش العباسيين عم الخليفة عبد الله بن علي الذي ذكره

١- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٣٧٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢٣١

٢ - الجراب: وعاء من إهاب الشاء لا يوعى فيه إلا يابس. والنورة من الحجر الذي يحرق ويسوى منه الكلس وله استخدامات مختلفة مثل حلق الشعر. لسان العرب، جـ ١، ص ٢٦١. جـ ٥، ص ٢٤٤.

٣- الجاحظ، رسال فضل هاشم، ص ٤٢٢. كما وردت رواية عند البلاذري "غم إبراهيم الإمام في جراب نورة" أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٢٢.

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٤٥.

٥- رجل سفاح، معطاء، وهو أيضا الفصيح. ورجل سفاح أي قادر على الكلام. والسفاح: لقب عبد الله بن محمد أول خليفة من بني العباس. لسان العرب، جـ ٢، ص ٤٨٦.

٦- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٥.

وردت الخطبة عند الطبري باختلاف بسيط في العبارات من ذلك "وزعمت السبيئة الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم" تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٣٤٧.

وعند ابن كثير "وزعمت السبائية الضلال" البداية والنهاية، جـ ١٠، ص٤٥.

٧- ابن العمراني، الإنباء، ص ٥٢.

الجاحظ ضمن مفاخر بني هاشم "**وهو الذي أزال ملك بني مروان وشهد الحروب بنفسه**"[1]، بينما يقود جيش الأمويين الخليفة مروان بن محمد بنفسه[2].

بعد الهزيمة التي مني بها الأمويون لم يجد الخليفة الأموي مروان بدأ من الفرار، فهرب إلى دمشق أمام مطاردة عبد الله بن علي[3]، الذي استولى على دمشق بعد هروبه منها، وكذلك مدن الشام الواحدة تلو الأخرى. وكان استسلام دمشق العاصمة معناه سقوط دولة بني أمية، وانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية. لكن الخليفة مروان فر إلى مصر وتوجه إلى صعيدها[4]، وقرب الفيوم، عند قرية أبوصير ألقي القبض عليه، وقُتِل بعدما ظل هاربًا ثمانية أشهر، يفر من مكان إلى مكان[5].

اتخذ العباسيون الكوفة عاصمة لدولتهم بعد نجاح ثورتهم[6]، ثم بعد ذلك نقلت العاصمة إلى الأنبار "**وفيما يذكر عن عبد الله بن حسن أنه بينما هو يساير أبا العباس السفاح، بظاهر مدينة الأنبار، وهو ينظر إلى بناء قد بناه**"[7]، قبل أن يقوموا بتشييد مدينة بغداد لتكون عاصمة الخلافة الإسلامية، والتي ازدهرت طيلة قرنين من الزمن، وأصبحت إحدى أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون.

ثانياً: التوريث الأسري (التسلسل التاريخي للعباسيين الأوائل)

ينحدر العباسيون من سلالة العباس بن عبد المطلب[8] وهو أصغر أعمام النبي محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب يقول الجاحظ عن العباس: "**وفي الحسن لم يكن أحد أجمل من العباس بن عبد المطلب من بسطة جسمه وتمام قوامه**"[9]. فعبر عن بسطة الجسم بالصحة والقوام[1].

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٢- ابن خياط، تاريخ، ص ٤٠٣

٣- المصدر نفسه، ص ٤٠٣

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٥- ابن خياط، تاريخ، ص ٤٠٣

٦- مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٣٧٣

٧- التاج (منسوب للجاحظ)، ص ٥٥

٨- العباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو الفضل عم النبي صلى الله عليه وسلم، ولد قبل النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين أو ثلاث، وحضر بدراً فأسره المسلمون، ثم أسلم بعد أن فدى نفسه وقدم مكة، له أحاديث. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٢١- ٢٢. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١-٦. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣،ص ٢٧٣

٩- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٨

ركز الجاحظ على مبدأ الوراثة ليؤكد حجج العباسيين في الخلافة[2]. لقد عدَّ العباسيون الخلافة إرثا تحدر إليهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهم أحق بذلك الإرث من أبناء فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم، فالأعمام وأولاد الأعمام هم من يرثون[3]. وهم يرون موقف أبي بكر- رضي الله عنه - من الإرث صحيحا والدليل على صحته أن الصحابة لم يستنكروه. فتجيب العباسية انه "إذا كان ترك النكير دليلا على صدق دعوى أبي بكر وعمر، فإن ترك النكير على المتظلمين والمحتجين والمطالبين دليل على صحة دعواهم أو استحسانها. وقد طالبت فاطمة أبا بكر بميراث والدها فمنعها إياه، فاحتجت وألحت وشكت ووجدت ودعت على أبي بكر فلم يرد عليها أحد من الصحابة ولم يصرفها عن الخطأ إذا كانت على خطأ"[4]. فخروج بني العباس كان رداً على ابتزاز الأمويين الخلافة من أهلها، وظلمهم للعلويين، ولأن العلويين تنازلوا عن الخلافة فليس من حقهم أن يطالبوا بها بعد أن صارت إلى العباسيين[5].

اعتمد الجاحظ على مبدأ الوراثة والقرب من آل البيت في تأكيد أحقية العباسيين بالخلافة[6]، فأكد على ذلك من خلال "إن الخلافة إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعمومة وتستوجب بحق العصبة"[7]. فرؤيته تتمثل في أن العم يرث قبل ابن العم؛ فإذا كانت الإمامة تورث، فالعباس عليه السلام أحق بها، ويلمح بذلك إلى إبعاد العلويين عن أمر الخلافة، كما حصر الإمامة في الفرع العباسي، منتصرا في ذلك للعباسيين في جه خصومهم من العلويين والنابتة والإمامية[8].

سار خلفاء بني العباس علي سيرة بني أمية في ولاية العهد، بل إن بعضهم عمد إلى تسمية أكثر من ولي للعهد في وقت واحد مما ساهم في نشوب الصراع بين ولاة العهد، كما

---

١ - الدروبي، رسالة مناقب خلفاء بني العباس، ص ٢٩

٢ - أكد أبو العباس مبدأ الوراثة كحق من حقوقهم في الخلافة في خطبته: وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن المنصور أكد على نفس الفكرة: ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا .الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٣٤٧، ص ٥٣٥. الزويري، الإمامة، ص ٤١.

٣- الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٤٧٤

٤ - المصدر نفسه، ص ٤٧٥

٥ - تأكيدا على تنازل الحسن عن الخلافة فيما يذكر الواقدي: ان معاوية خاطب أهل الشام بعد أن تنازل الحسن عن الخلافة. وأيا كان فلم تطل خلافة الحسن ، إذ لم تتجاوز سبعة أشهر وأحد عشر يوما، وقيل سبعة أشهر وسبعة أيام. اليعقوبي، تاريخ، ص ١٩٤. أيام الزويري، الإمامة، ص ٤٢. البطاينة، محمد. وصول بني أمية إلى منصب الخلافة. مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد ٨٣، المدينة المنورة: د ت، ص ٢٧٩ (سيشار إليه فيما بعد: البطاينة، وصول بني أمية للخلافة).

٦ - نوري، الجاحظ، ص ٦

٧- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٠.

٨ - الزويري، الجاحظ، ص ٨. نوري، الجاحظ، ص ٦

حصل بين الأمين والمأمون[1]، والملاحظة الجديرة بالاهتمام أن الجاحظ لم يتناول موضوع التوريث عند العباسيين مثل ما تناوله عند الأمويين، حتى لا يعاب عليه صفة التناقض، فقد تناول موضوع التوريث عند الأمويين من مبدأ عدم جواز تولية الخلافة من لا يستحقها مثل ما حدث من معارضته تولية يزيد[2]، أما عند العباسيين فقد تناولها من باب أهمية تسمية ولي للعهد حتى لا يختلف الناس، وأن العامة لا تدرك مصلحتها في اختيار الإمام فكان لا بد للخاصة أن تقوم بعملية اختيار الإمام، ويظهر التناقض عند الجاحظ بين ما عابه على الأمويين في تسمية ولي للعهد من بعدهم وبين المبادئ التي نادى فيها بأهمية قيام الخاصة باختيار إمام.[3]

وردت إشارات بسيطة عند الجاحظ حول مسألة التوريث في الدولة العباسية، متحرزا أن يقع في تناقض بين مبادئه وبين ما يؤيده - وإن كان قد وقع - فقد أورد ذكر أبي العباس السفاح الذي عهد بولاية العهد من بعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور، ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي العباسي فلم يعترض على تولية العهد **"وهو الذي شيد ملك المنصور وحارب ابني عبد الله بن حسن وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه، وكان فصيحا أديبا شاعرا"**[4]، إذ بويع أبو جعفر المنصور خليفةً بعد وفاة أخيه أبو العباس **" أتاه كتاب بموت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر"**[5]. أما بعد ذلك فقد سكت الجاحظ عن انتقال الخلافة بعد المنصور ولم يورد أي إشارة حول ذلك.

عدد الجاحظ مناقب أبي العباس (١٣٢-١٣٦/ ٧٥٠-٧٥٤م) والذي تلقب بأمير المؤمنين[6] فكان وزيره أبو سلمة الخلال، وقائد جيشه أبو مسلم[7]، وكان على شرطته عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي[8]، وعلى قضائه محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى[1]، وحاجبه أبو

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٩.

٢ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٠

٣ - الزويري، الإمامة، ص ١٠٩.

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٦٠

٥- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٨٠.

٦- الجاحظ الحيوان، جـ٢، ص٣٢١

٧ - قتل أبو سلمة الخلال في عهد أبي العباس، وأبو مسلم في عهد المنصور. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٣٦٠، ٣٨٠.

٨ - من الأشداء ظهر في صدر العهد العباسي. ولاه المنصور إمرة خراسان سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧م، فقتل كثيرا من أهلها بتهمة الدعاء لولد علي بن أبي طالب. ثم خلع طاعة المنصور. فوجه المنصور الجند لقتاله، فأسروه وحملوه إليه. فقطعت يداه ورجلاه وضرب عنقه، بالكوفة، ونفي أهله وبنوه. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٢٣٠. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٦، ص ٥٣.

غسان صالح بن الهيثم[٢]. "كان أبو مسلم استشار مالك بن الهيثم، حين ورد عليه كتاب المنصور في القدوم عليه، فلم يشر عليه في ذلك، فلما قتل أبو مسلم اذكره ذلك"[٣] بعد الحديث الذي دار بينهما حول ما أخذه المنصور على أبي مسلم[٤].

عمل الجاحظ على تقريض أبي العباس بصفات مثل الحلم والكرم والخطابة وغزارة العلم وعمق الفهم وفصاحة المنطق وقوة العارضة وحسن الاستماع " وكان عبد الله السفاح أحلم الناس "[٥] كما وصفه " وكان السفاح يضرب به المثل في السرو وسجاحة الخلق"[٦] وتعني كلمة السفاح الكريم[٧] لقول الجاحظ "ومن رجالنا محمد بن السفاح، كان جوادا أبدا"[٨]. كما لا يفوت الجاحظ أن يشير إلى البصر الذي تميز به في مسائل الدين والفقه فيها، فكان يقرب رجال العلم والفقه حتى يتعلم منهم[٩].

وعلى الرغم أن الجاحظ لم يعاصر أبا العباس السفاح إلا أنه وصفه بأبلغ الصفات، منزها إياه عن العيوب والنواقص "فنشأ بخير ما ينشأ به الرجال، أديبا عفيفا نزيها، لم ير له قط صبوة، ولا غرام بشهوة الجاهلية، ولا ملابسة لظنين[١٠]، ولم ير منتجعاً قط، ولا راجلا إلى ذي سلطان، ولا مخاصما إلى قاض"[١١]. كما وصفه بالحلم والسكينة والتواضع وغيرها من الصفات التي يهدف

---

١ ـ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، كان من أصحاب الرأي، وتولى القضاء بالكوفة وأقام حاكما ثلاثا وثلاثين سنة، ولي لبني أمية ثم لبني العباس وكان فقيها. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ١٧٩.

٢- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٨٣.

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص٦٥٤

٤- العمراني، الإنباء، ص ٦١

٥- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٨

٦- المصدر نفسه، ص ٤٥٩

٧ ـ إن الأعداد التي قتلت من بني أمية جلعت الناس تربط بين لقب السفاح وكثرة القتل، لكن حقيقة الأمر أنه حدث خلط بين أبي العباس وعمه عبدالله بن علي الذي كما يشير المؤرخون يلقب أيضا بالسفاح بسبب كثرة من قتل من الأمويين، ومن ناحية أخرى يشير ابن عبد ربه أن أبو العباس خطب في الشام وأبو العباس لم يزر الشام مما يعني وقوع المؤرخين في خلط بينه وبين عمه عبد الله بن علي. من ناحية أخرى لم يعرف عن أبي العباس حبه للقتل وسفك الدماء حتى أن أبا سلمة الخلال الذي أراد تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين لم يقم أبو العباس بقتله بل أرسله إلى أخيه المنصور. كما عرف أنه كما يشير ابن طباطبا الكرم والجود وعفة النفس. انظر: ماجد، عبد المنعم. العصر العباسي الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٧٦م، جـ ١، ص ٤٨-٥٠ (سيشار إليه فيما بعد: ماجد العصر العباسي الأول).

٨- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٦٠

٩ ـ الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٠. ماجد، العصر العباسي الأول، ص ٤٩.

١٠ ـ الظنين: المتهم وأيضا قليل الخير. لسان العرب، جـ ١٣، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

١١ ـ الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ٤

منها تعظيم شأن العباسيين، فأبو العباس هو رأس الدولة والمؤسس ومن قامت الدولة على يديه، فعلو كعبه من علو الدولة قاطبة[1].

أما المنصور (١٣٦هـ - ١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) الذي تولى الخلافة بعد وفاة أخيه أبي العباس والذي استمرت خلافته اثنتين وعشرين سنة، يشير له الجاحظ مظهرا مناقبه "**ملك البلاد ودوخ الأقطار وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنة** "[2]. كما أشار إلى ثلاث خصال عند المنصور وهي الحزم والعلم والحلم[3].

أثنى الجاحظ على أبي جعفر المنصور، خاصة في الدور الذي لعبه في بدايات الدعوة العباسية وما قام به من إصلاحات في خلافته جعلته المؤسس لدولة بني العباس "**كان فيما قال المنصور وفعل في أيامه، وما أسس لمن بعده، ما يفي بجامعة ملوك بني مروان**"[4] فقد بالغ الجاحظ في حكمه إذ عد المنصور بكل خلفاء بني مروان.

وأشار الجاحظ إلى صور من دهاء وسياسة المنصور[5]، فهو لم ينس خروج عمه عبد الله عليه، لكنه أخذه باللين حتى قتله "**وقال عثمان بن خريم للمنصور، حين عفا عن أهل الشام في أجلابهم مع عبد الله بن علي عمه: يا أمير المؤمنين: لقد أعطيت فشكرت، وابتليت فصبرت، وقدرت فغفرت**"[6].

يصور الجاحظ مواقف المنصور مع رعيته[7] ومدى علاقته بهم "**دخل شاب من بني هاشم على المنصور، فسأله عن وفاة أبيه فقال: مرض أبي رضي الله عنه يوم كذا، ومات رضي الله عنه يوم كذا،**

---

١ - المصدر نفسه، ص ٤

٢- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٠

٣ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣١.

٤ - الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ٢.

٥ - وصف المنصور بالدهاء والمكر والحزم، ولعل في حملته على محمد النفس الزكية ما يدل على ذلك الدهاء، وكذلك في استدراجه أبي مسلم الخراساني الذي عزم على العودة إلى خراسان حتى أقنعه بالعودة إليه فقتله. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٠١- ٢١١، ص ٢٢٤. الحميري، محمد عبدالمنعم(ت: ق ٨ / ق١٤م). الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط١، مكتبة لبنان، بيروت: ١٩٨٤م، ص٢٧٧ (سيشار إليه فيما بعد: الحميري، الروض المعطار).

٦- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٧٦

٧ - أوصى المنصور ابنه المهدي: انظر أهل الجزالة والفضل والعقل منهم فشرفهم ، وأجزل لهم الإعطاء ووسع عليهم في الأرزاق، وتحبب إليهم بالإحسان جهدك وتفقد الصغير تفقدك الكبير، وانظر الأموال فوفرها بولاية أهل العفاف عنها ولا تبتذلها إلا في إصلاح أمور الرعية وثواب أهل الطاعة والنصيحة، واجعل لكل إليك حاجة واجعل لهم من فضلك مادة واسمع من أهل التجارب ولا تردن على ذوي الرأي، وعود نفسك الصبر في إصلاح الرعية. البلاذري، انساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٧٠.

وترك رضي الله عنه من المال كذا، ومن الولد كذا. فانتهره الربيع وقال: بين يدي أمير المؤمنين توالي بالدعاء لأبيك؟ فقال الشاب: لا ألومك، لأنك لم تعرف حلاوة الآباء. قال: فما علمنا أن المنصور ضحك في مجلسه ضحكا قط، فافتر عن نواجذه إلا يومئذ "[1].

كما يعدُّ المنصور وما قام به من الأعمال[2] أنها تتجاوز كل أعمال خلفاء بني أمية، وعلى الرغم أن الجاحظ لا يفصل في تلك الأعمال بل يعطي إشارات عابرة "كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه، واسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان"[3]. فكان الجاحظ لسان حال السلطة. كما وصفه بأنه "داهية أريبا، مصيبا في رأيه سديدا، وكان مقدما في علم الكلام، ومكثرا من كتاب الآثار"[4].

تولى الخلافة بعد المنصور ابنه المهدي (١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٥-٧٨٥م) الذي تميزت فترة خلافته بالاهتمام بالخدمات الداخلية من تنظيم للطرق واهتمام بالبريد كما اهتم بالزراعة. واشتهر بالورع والالتزام بالشريعة "وكان المهدي بن المنصور أسرى خلق الله وألطفهم خلقا"[5] وأشاد الجاحظ بخلافة المهدي فكانت فترة خلافته هادئة وسالمة " وسنو المهدي كانت سني سلامة"[6] وعلى الرغم من حالة الهدوء التي امتازت بها خلافة المهدي، إلا أنها شهدت بعض حركات

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٢٣

٢ - يعتبر المنصور مؤسس الدولة العباسية، وقد قام بأعمال جليلة سواء لتثبيت الدولة أم لحمايتها من هجمات المعارضة والهجمات الخارجية، من ذلك ما قام به في القضاء على المتمردين والمنشقين من الراوندية، البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٣٦. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٣٩٦.

كما قضى على عمه عبدالله بن علي في بلاد الشام، البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ١٨٥-٢٠٠.

وأيضا استدرج أبا مسلم الخراساني حتى قضى عليه. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٨٠.

كما قضى على ثورة العلويين بقيادة محمد النفس الزكية في المدينة. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص٢٠١- ٢١١، ص ٢٢٤. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٧٧.

كما قضى على حركات الخوارج في الجزيرة الفراتية بقيادة بني شيبان. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٩٠.

كما قضى على الحركات التي قامت في بلاد فارس مثل حركة أشناس، وحركة سنباذ، وحركة إسحق الترك، وحركة أستاذ سيس. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص، ٣٣٨، ٤٩٤ وما يليها. سالم، السيد عبد العزيز. دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية: ١٩٩٥م، جـ ٣، ص١٤٥-١٤٦. (سيشار إليه فيما بعد: سالم، العصر العباسي الأول).

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٣٧

٤- المصدر نفسه، ص ٢٣٨

٥- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٩

٦- المصدر نفسه، ص ٤٢٠

التمرد كحركة المقنع الخراساني[1] "وكان المقنع الذي خرج بخراسان يدعي الربوبية، لا يدع القناع في حال من الحالات..... وهذا المقنع كان قصارا من أهل مرو، وكان أعور ألكن"[2].

لم يغفل الجاحظ الحديث عن بعض من حياة الخليفة المهدي[3] الخاصة، فقد أشار إلى ولع المهدي بالقيان وسماع الغناء[4] "كان يحب القيان وسماع الغناء، وكان معجبا بجارية يقال لها " جوهر "، وكان اشتراها من مروان الشامي، فدخل عليه ذات يوم مروان الشامي وجوهر تغنيه، فقال مروان:

أنت يا جوهر عندي جوهرة ... في بياض الدرة المشتهرة

فإذا غنت فنار ضرمت ... قدحت في كل قلب شررة"[5]

وفي هذا يبرز الجاحظ دور القيان في محيط الدولة العباسية، وذلك لما يتمتعن به من دهاء، إضافة إلى ذلك فإن القيان ساهمن في نشر الميل إلى الأدب والفنون الجميلة لأنهن يجدن الغناء وأصول اللغة والشعر، كل ذلك أختمنه بحسن ظاهر وبارز[6].

كما وصفه الجاحظ بالكرم والجود "ووقف المهدي على امرأة من بني ثعل فقال لها: ممن العجوز ؟ قالت: من طيء ؟ قال: ما منع طيئاً أن يكون فيها آخر مثل حاتم. قالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك، وأعجب بقولها ووصلها "[7]

وعلى الرغم من ذلك، فإنه عرف عن المهدي الورع فكان شديدا على أهل الإلحاد والزندقة[1] "فلما دخلنا معاً ما شعرت الخيزران إلا ببني أبي عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم،

---

١ - سعيد الحرشي الملقب بالمقنع خرج في مرو، يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشرا كثيرا وقوي وصار إلى ما وراء النهر فوجه المهدي لقتاله عدة من قواده، وابتدأ المقنع بجمع الطعام عدة للحصار في قلعة بكش. ابن خياط، تاريخ، ص ٤٣٧. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٦٠، ٥٦٦. سالم، العصر العباسي الأول، ص١٥٣.

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص٧٠

٣ - كان المهدي في بداية خلافته محباً للغناء لكن هذا التحول من الغناء والقيان حدث في فترة متأخرة من حياة المهدي، وهذا ما يؤكد عليه الطبري بقوله على لسان إحدى القيان "دخلت على المهدي وقد وصف له غنائي فسألني عن الغناء وعن علمي به وقال لي تغني النواقيس قلت نعم والصليب يا أمير المؤمنين فصرفني وبلغني أنه قال معيطي ولا حاجة لي إليه فيمن أدنيه من خلوتي ولا آنس به" الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٩٢

٤ - انظر: الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٩٢. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ٢.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤١.

٦- أسهب الجاحظ الحديث في رسالة القيان عن مكان القانية في البلاد العباسي، انظر: جـ ٢، ص ١٥٨ وما يليها.

٧- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٢

فقالوا: لو أردنا أن نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا، ولكنا لا نستحل، فقالت لهم: والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم، فانصرفوا، فلما رجعت الخيزران، أخبرت المهدي بذلك، فكان السبب في قتل المهدي محمد بن أبي عبيد الله على الزندقة "[2].

وإذا كان الطبري يذكر أن المهدي استتاب بعض من أخذ بالزندقة مثل ما ذكر بقوله "أخذ داؤد بن روح بن حاتم وإسماعيل بن سليمان بن مجالد ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفور في الزندقة فأقروا فاستتابهم المهدي وخلى سبيلهم وبعث بداؤد بن روح إلى أبيه روح وهو يومئذ بالبصرة عاملا عليها فمن عليه وأمره بتاديبه"[3] فهذا لا يتنافى مع رواية الجاحظ التي كان المهدي عازماً فيها على قتل ابن عبيد الله بسبب الزندقة أو غيرها، لأن هذا العزم يُحمل على أنه كان قبل التوبة من الزندقة.

ثم تولى الخلافة بعده ابنه موسى الهادي (١٦٩-١٧٠هـ /٧٨٥-٧٨٦م) الذي أظهر الجاحظ إعجابه في سياسته تجاه رعيته حيث كان حريصاً على مقابلة ورؤية الناس، فيقول لحاجبه: " لا تحجب الناس عني فإن ذلك يزيل التزكية ولا تلق إلي أمرا إذا كشفته وجدته باطلا، فإن ذلك يوتغ[4] المملكة "[5] وهذا ما أكد عليه الطبري بقوله " وكان الهادي قد استخلف على حجابته بعد الربيع ابنه الفضل فقال له لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة ولا تلق إلي أمرا إذا كشفته أصبته باطلا فإن ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية "[6]

انتقلت الخلافة إلى هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) بعد أخيه الهادي الذي تميزت فترة خلافته بالإصلاحات، إذ بنيت المساجد الكبيرة والقصور الفخمة، كما شهدت

١- يعد المهدي أول من قام بحركة منظمة ضد الزندقة، فقد أمعن في قتل الملحدين والمداهنين، كما أمر بتصنيف كتب في الرد على الملحدين. يهدف من ذلك أن يثبت للناس أنه أهل للخلافة ويستحق لقب المهدي الذي أضفاه عليه المنصور، كما يؤكد الطبري اجتهاد المهدي في طلب الزندقة والبحث عنهم في بغداد وخارجها، كما أنه أنشأ ديواناً للزندقة، وقد اشتهرت عمليات مطاردة الزنادقة خاصة في عام ١٦٦هـ/ ٧٨٢م، كما أنه كان يتحرى بنفسه عن هؤلاء الزنادقة. انظر: اليعقوبي تاريخ اليعقوبي، ص٤١١. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٥٦٨، ٥٨٠، ٥٨٢. فوزي، الخلافة العباسية، جـ١، ص ١٥٨-١٥٩.

كما أن الطبري في موضع أخر أشار إلى أن المهدي اتهمه في أهل بيته، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٦٢.

لكن الجاحظ انفرد برواية مختلفة حول سبب القتل موضحا أن سبب مقتل محمد بن أبي عبيد الله هو أحد الموالي الفرس الذي عمل على اتهام ابن أبي عبيد الله عند المهدي وسعى بالوشاية به عند المهدي. الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٤٥.

٢- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٤٥

٣- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٧٩

٤ - الهلاك. وفسد وهلك وأثم. لسان العرب، جـ ٨، ص ٤٥٨.

٥- الجاحظ، رسالة الحجاب، ص ٥٦٧

٦- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٦١١.

الحركة العلمية تطوراً هائلاً على مختلف مجالات العلوم. وكان من مميزات عصره أنه اهتم كثيراً بالأمور الاقتصادية إذ اعتنى بالزراعة ونظمها[1]، أما في مجال التجارة فقد شجع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة الطرق التجارية بين المدن. من آثاره العمرانية تشييد مدينة الواقفة قرب مدينة الرقة[2].

أشار الجاحظ إلى أن الرشيد عرف بالورع بقوله: " **وكان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنبين عن يمين وشمال، ثم طاف بأوسع من خطو الظليم[3]، وأسرع من رجع يد الذنب**"[4]

كما يشير الجاحظ إلى تقريب الرشيد للشعراء، فإذا كانت وردت رواية منفردة لشاعر عماني، فمن المؤكد أن هناك شعراء كثر لم يذكرهم الجاحظ لأنهم صاروا أمراً معتاداً في بلاط الرشيد "**دخل العماني الراجز[5] على الرشيد، لينشده شعرا، وعليه قلنسوة طويلة، وخف ساذج، فقال: إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان. .... ولا الله إن رأيت فيهم أبهى منظرا، ولا أحسن وجها، ولا أنعم كفا، ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين. وو الله لو ألقي في روعي أني أتحدث عنك ما قلت لك ما قلت**

جهير العطاس شديد النياط ... جهير الرواء جهير النغم

ويخطو على الأين خطو الظليم ... ويعلو الرجال بجسم عمم"[6]

كان هوى الجاحظ في الفتنة التي حصلت بين الأمين والمأمون مع المأمون الذي عمل على تقريبه وإدخاله البلاط مع كبار رجالات المعتزلة، ومن ثم كان الجاحظ لا يذكر الأمين إلا وقرن اسمه بكلمة المخلوع "**علمت أن الشاري حدثني أن المخلوع بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم؛ كأنه يخبر أن عنده من الجند بعدد ذلك الحب وأن المأمون بعث إليه بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم، كما يلقط الديك الحب**"[7].

١- ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص١٢٠

٢- الجاحظ، البغال، ص١١٨. شيدت على ضفاف الفرات لتكون مقرّا صيفيّا لحكمه. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٤، ص ٥

٣ - المشي السريع. لسان العرب، جـ ٢، ص ٣٨٨.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٢٢.

٥ - هو محمد بن ذؤيب الفقيمي، ولم يكن من أهل عمان، وإنما قيل له عماني لأن دكينا الراجز نظر إليه وهو يسقي الإبل ويرتجز، فقال: من هذا العماني؟ فلزمه الاسم. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ ٢، ص ٧٤٣.

٦- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٩٧

٧- الجاحظ، الحيوان، جـ ٣، ص ٤٣٦

لم يشأ الجاحظ في أن يخوض في هذه الفتنة وأسبابها وأطرافها وملابساتها، فقد وقع في الحرج بين انهزام الحزب العربي بقيادة أم جعفر وابنها الأمين ووزيره الفضل بن الربيع، وبين انتصار شريكه في فكر الاعتزال ولكن بمعية كبار الأعاجم الذي يشكلون الحزب المعادي للعرب. إن غلبة المأمون واتفاقه مع الجاحظ في الفكر والاتجاه خاصة في مبادئ المعتزلة ساهمت في تعميق العلاقة بينهما، من جانب أخر فإن إرهاصات العلاقة التي حدثت بين الأمين والمأمون عمقت فكرة وجود حزبين عربي وغير عربي يسعى كل منها لتثبيت نفسه في الخلافة[1].

تناول الجاحظ عهد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ / ٨٠٩-٨١٣م) بإشارات تدل على هواه الغناء والطرب ولعل الجاحظ يهدف من وراء ذلك إلى التقليل من شأنه لإبعاد الناس عنه وخاصة أهل بغداد الذين وقفوا معه ضد أخيه المأمون[2] " **لما أحيط به، وبلغت حجارة المنجنيق بساطه، كنا عنده، فغنته جارية له بغناءٍ تركت فيه شيئاً لم تجد حكايته. فصاح: يا زانية تغنينني الخطأ خذوها.فحملت، وكان آخر العهد بها**"[3].

لكن الفتنة انتهت بمقتل الأمين وتولى الخلافة بعده أخوه المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م) الذي كان من أفضل رجال بني العباس حزما و عزما و له محاسن و سيرة طويلة، لم يتولّ الخلافة من بني العباس أعلم منه و كان فصيحا مفوها[4].

يعدّ المأمون من أكثر الخلفاء العباسيين الذي تناولهم الجاحظ في كتاباته ففضلا عن أن عصره هو العصر الذهبي للعلم والعلماء حيث تميز عهده بتشجيع مطلق للعلوم من فلسفة وطب ورياضيات وفلك واهتمام خاص بعلوم اليونان، كما قرب العلماء وأجزل لهم العطاء[5]، فإنه أجتمع في شخصه حميد الأخلاق والجود والعفو والبر والحلم والصبر والتدبير والسياسة والرفق وأصالة الرأي والوفاء والعدل " **ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به، وصرت إليه..... وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه، ولا يفتقر إلى المحتجين عنه، قد جمع استقصاء**

---

١ - الزويري، الجاحظ، ص ٣٨

٢ - أشار الفضل بن سهل على المأمون بإظهار الورع والدّين وحسن السّيرة، فأظهر المأمون حسن السيرة واستمال القوّاد وأهل خراسان، وكان كلّما اعتمد الأمين حركة ناقصة، اعتمد المأمون حركة شديدة، ثم نشأت العداوة بينهما. ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٠-٢١١.

٣- التاج (منسوب للجاحظ)، ص ٢٦

٤ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦١.

٥- الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٦٠

المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، والمخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصي"[1].

لقد ألقت العلاقة بين المأمون والجاحظ بثقلها على نظرة الجاحظ لمسألة الإمامة، فإذا كان الجاحظ قد وصف خلافة الأمويين بأنها خلافة قهر وغلبة بسبب موقفهم من المسلمين عامة ومن المعارضين لهم خاصة، فإنه وصف خلافة المأمون الذي تولى بعد أن غلب أخاه الأمين بأنها خلافة شرعية، فلم يكن يعني أمر الغلبة بقدر ما هو معني بإظهار ظلم الأمويين لغيرهم[2].

اهتم المأمون كثيراً بالترجمة حتى إننا نستطيع أن نسمي عهده بعهد الترجمة فقد نقلت المعرفة من علوم وآداب سريانية وفارسية ويونانية إلى العربية فاكتسبت اللغة العربية اهتماما خاصاً و مكانة مرموقة إذ تحولت من لغة شعر وأدب فحسب إلى لغة علم وفلسفة. كما أن الجاحظ نفسه تولى ديوان الرسائل في عهد المأمون[3].

إلا أن الجاحظ له رأي في المترجمين فهو لا يثق بهم وهذا ما دفعه إلى التقليل من قدرهم[4]، ودحض الأكاذيب التي يلجؤون إليها لتبرير مواقفهم، وإلى فضح عوراتهم وخطل تأويلهم ونقلهم[5]. وكثيراً ما يربط بينهم وبين البحارة أو الصيادين من حيث المبالغة أو التلفيق في سرد الأخبار والأساطير[6].

حظيت شخصية المأمون بأهمية واضحة، فكان له – كما يرى الجاحظ - من المؤهلات العلمية التي انعكست على شخصيته وجعلته أعلم الخلفاء وأميزهم، فقد أشار الجاحظ إلى ثقافة المأمون ومعرفته بألوان العلوم وقدرته على إزالة مبهماتها ومشكلاتها، كما تميز بالقدرة اللسانية على المحاجة مما أكسبه فصحة في اللسان وبيانا وطلاقة، جعلته كما يشير الجاحظ وحيد عصره وخطيب دهره نفسه "وقال سهل بن هارون يوما، وهو عند المأمون: من أصناف العلم مالا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال! قال المأمون: قد يسمى بعض الشيء علما وليس بعلم، فإن كنت هذا أردت فوجهه الذي ذكرناه. ولو قلت: العلم لا يدرك

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤٤

٢ - الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٢. الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٢. الزويري، الإمامة، ص ٥٩.

٣- الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص ٦٠٥

٤ - سوء الترجمة، وفساد تأويل المترجم لما يترجمة، وفساد النسخ الذي قد يعود إلى سوء الخط أو التحريف والتبديل والتغيير والضياع بمرور الزمن؛ كل هذا يساهم في تقليل قدر الكتاب المترجم وصعوبة فهمه. عزت، فلسفة الأخلاق، ص ٤٧.

٥- الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٤، ص ٢٩٤. جـ ١٦، ص ١٤٩. فوزي، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٢٢٤.

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ٦، ص ١٩، ٢٨٠

غوره، ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا يستقصى أصنافه، ولا يضبط آخره، فالأمر على ما قلت. فإذا فعلتما ذلك كان عدلا، وقولا صدقا"[1]. فجمع الناس على مذهب واحد يعد عند الجاحظ من أهم ما تميز به المأمون[2].

كما أن المأمون المعروف عنه بإطلاق الحريات فكان يسائل حتى الزنادقة " فقال له المأمون: أسألك عن حرفين فقط. خبرني: هل ندم مسيء قط على إساءته، أو نكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط؟! قال: بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم. قال: فخبرني عن الندم على الإساءة، إساءة أو إحسان؟ ... "[3].

عد الجاحظ فترة خلافة المأمون الأكثر فساداً في الاعتقاد، واختلاطا في القول، فصار المأمون في امتحان قاس، لكن ما تميز به من الصفات جعله يخوض غمار الإصلاح هادفا إلى رد الناس عن غيهم، فكان يعالجهم بحسن السياسة والمداراة حتى تم له ما أراد "تميز المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالحلاوة والفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة "[4]. كما أضاف "لم أر أنطق من المأمون أمير المؤمنين "[5]. وكلمة أمير تحمل أبعاد سياسية تتمثل في تذكير الناس بأنه الخليفة الشرعي الذي تولى الخلافة وهو أهل لها، فسار فيها سيرة الخلفاء الراشدين مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهم -[6].

كما يصور الجاحظ العلاقة بين المأمون والمعتزلة من خلال تصوير علاقة المأمون بسهل بن هارون الذي أراد أن يبعد سهلاً عن مجلسه، لكن سهلاً المعروف بحلاوة وجزالة اللفظ استطاع أن يقرب المأمون إليه " كان المأمون قد استثقل سهل بن هارون، فدخل عليه سهل يوما والناس عنده على منازلهم، فتكلم المأمون بكلام فذهب فيه كل مذهب، فقال سهل بن هارون: ما لكم تسمعون ولا تعون، وتشاهدون ولا تفقهون، وتنظرون ولا تبصرون. والله إنه ليفعل ويقول في اليوم القصير مثل ما فعل بنو مروان وقالوا في الدهر الطويل. عربكم كعجمهم، وعجمكم كعبيدهم، ولكن كيف يعرف الدواء من لا يشعر بالداء. قال: فرجع له المأمون بعد ذلك إلى الرأي الأول "[7].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤٣

٢ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٢.

٣- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ١٦٣

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٩٤

٥- المصدر نفسه، ص ٩٤

٦ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٣

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٠

كما امتدح سياسة المأمون بتقريب العلماء، فمن رأى منه نبوغا في العلم قربه منه[1].

وعندما تولى المأمون الخلافة، وجد العلماء فريقين مختلفين، ووجد الخلاف محتدمًا بين علماء الكلام والفقهاء والمحدثين، فأطلق الحرية مما حدا بالمعتزلة التي تحكم العقل في كل آرائها إلى الثناء على المأمون. فكان المأمون يهدف من تلك المجالس في الاطلاع على ما يجري في مجالس أهل الفكر على ألسنة المعارضين له[2].

كما وصفه بالعدل **"وهل سمعتم بأعدل منه في حكمه، ولا أقصد في فعله، ولا أسد في قوله على غناء طرفه، وذكاء عينه"**[3] أما عن صفة البلاغة عند المأمون **"بينا الحسن اللؤلؤي في بعض الليالي بالرقة يحدث المأمون والمأمون يومئذ أمير، إذا نعس المامون، فقال له اللؤلؤي: نمت أيها الأمير؟ ففتح المأمون عينيه وقال: سوقي والله خذ يا غلام بيده"**[4]

لكن الجاحظ أورد رواية يتيمة حول حياة المأمون الخاصة، فكان لا يتردد في استعمال نفوذه في الحصول على ما يروق له من الجواري بدعوى الزواج، متستر بعقد النكاح الشرعي. وقد نقل لنا الجاحظ هذا السلوك عند المأمون **" ولقد نظر المامون إلى سُكر فقال: أحُرةٌ أنت أم مملوكة؟ قالت: لا أدري، إذا غضبتْ علي أم جعفر قالت: أنت مملوكة، وإذا رضيتْ قالت: أنت حُرة. قال: فاكتبي إليها الساعة فاسأليها عن ذلك. فكتبتْ كتاباً وصلته بجناح طائرٍ من الهُدى كان معها، أرسلتْه تعلم أم جعفرٍ ذلك، فعلمت أم جعفرٍ ما أراد فكتبتْ إليها: " أنت حُرة ". فتزوجها على عشرة آلاف درهم، ثم خلا بها من ساعتها فواقعها وخلى سبيلها، وأمر بدفع المال إليها "**[5].

بعد وفاة المأمون تولى الخلافة أخوه المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م)، الذي اعتمد على الأتراك فكان حرسه منهم، وكانوا أخواله إذ كانت أمة تركية **"فقلت لصاحب لي: انظر أي شيء اتفق لنا. أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم "**[6]، كما فعل أخوه المأمون مع الفرس، وكان قوام الحرس التركي بداية عهد المعتصم أربعة آلاف رجل، غير أنه استقدم

١ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٨

٢ ـ الزويري، الإمامة، ص ٣٤.

٣ ـ الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ٧.

٤ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٢٤

٥ـ الجاحظ، رسالة في القيان، جـ ٢، ص ١٥٧.

٦ـ الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٥٠٥

المزيد من قبائلهم ما آثار قلاقل واضطرابات في بغداد اضطر معها الخليفة لنقل عاصمته إلى سامراء[1].

ويبرر المعتصم اصطناعه للأتراك عندما تولى الخلافة لشدة بطشهم وصبرهم على القتال. كما أراد أن يكسر شوكة الفرس، فقد كان الخلفاء الذين سبقوه يعتمدون على عنصرين هم العرب والفرس فجاء المعتصم وأضاف عنصرا أخر وهم الأتراك خاصة وأن أمة تركية، كما رأى فيهم شدة إخلاصهم للخليفة وعدم إثارتهم النزعات والحركات الفكرية والدينية كما فعل الفرس، وأشار الجاحظ إلى شدة بأس التركي في الحرب والقتال وكذلك ما شاهده من انفلات فرس من الجنود الخراسانيين وعجزهم عن أخذها حتى جاء تركي فقبض عليها وسلمهم إياها[2].

ومن أبرز الأحداث في عهده فتح عمورية[3] عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م. وقد أشار الجاحظ إلى طرف من تلك المعركة بقوله: "**وساير البطريق الذي خرج إلى المعتصم من سور عمورية، محمد ابن عبد الملك، والأفشين بن كاوس، فساوم كل واحد منهما ببرذونه، وذكر أنه يرغبهما أو يربحهما. فإذا كان هذا أدب البطريق، مع محله من الملك والمملكة، فما ظنك بمن هو دونه منهم! ولما استجلس المعتصم بطريق خرشنة، تربع ثم مد رجليه**"[4]

أشاد الجاحظ بالمعتصم في حماية حدود الدولة الإسلامية وفي سد الثغور ورد المظالم؛ كما أشاد به في الفتوح التي قام بها "**الفتوح التي تسكت الأزرقين وتخرس الرافضي، وتخذل السني الجماعي، وتعم الأمة السرور، والرعية بالمحبة والحبور، والتي تصغر معها كبار الفتوح**"[5]. كما صور الجاحظ معركة عمورية التي خاضها المعتصم ضد الروم[6] "**وذلك أني لقيت حزاما حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك؟ فقال لقيناهم في مقدار صحن الإصطبل، فما**

١- الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص٢١٣

٢- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٥١٢. ماجد، العصر العباسي الأول، جـ ١، ص ٣٨٨-٣٩١.

٣ - عمورية في بلاد الروم، حرزها المعتصم، وقد ذكرها أبو تمام

يا يوم وقعة عمورية..... انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

معركة عمورية كانت بين المعتصم و الإمبراطورية البيزنطية في سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م. انظر: ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت: ٢٧٢هـ/٨٨٥م). المسالك والممالك، ط١، دار أحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م، ص١٠٦-١٠٧ (سيشار إليه فيما بعد: ابن خرداذبة، المسالك والممالك). الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٥٨. الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٣- ٤١٤.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٧٥

٥ - الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ٨

٦- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٤٥٤

كان بقدر ما يحس الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق من ممرغة. وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سرجين، فلو طرحت روثة ما سقطت إلا على ذنب دابة "[1].

وقد أكثر الجاحظ في مدح المعتصم في رسالة مناقب بني العباس أكثر من غيره من الخلفاء العباسيين، ويستنتج من ذلك أن الجاحظ بدأ الرسالة في فترة خلافة المعتصم وبالتالي عاصره حتى فرغ منها، وهذا ما وفر له مادة غنية عن الأحداث التي وقعت في خلافة المعتصم ويسجل الجاحظ ستة من أعمال المعتصم والتي تتمثل في: قضية خلق القرآن[2]، وثورة الزط[3]، وحرب مازيار طبرستان[4]، وقتل بابك الخرمي[5]، وفتح عمورية[6] والقضاء على ثورة جعفر الكردي[7]، ورد خطر القراصنة[8] " وللمعتصم بالله ستة فتوح عظام جليلة، لم يحارب في واحد منهن إلا من قصد الإسلام والمسلمين دون ملكه خاصة، فمن ذلك مازيار وملك طبرستان بعد أن تغلب وقتل وتهضم، وسبى وتمكن من تلك القلاع، حتى ظفر به وقتله، ومن ذلك بابك، فقتله وصلبه حيث مازيار، ومن ذلك فتح عمورية وفي الثانية من قسطنطينية ثم أسر ياطس صاحب الضواحي وصلبه إلى جنب بابك ومازيار، واستباحة الزط، حيث اجتث أصلهم، ثم جعفر البركمي وتغلبه، حتى قتله الله على يده، ثم ما كان في ضائقة البصر وشق الهند وقتل الغزاة، وإخراب السواحل"[9]

فالمعتصم يبدو من خلال إشارات الجاحظ ذو عبقرية حربية فذة، يبذل ما يملك من أجل إعداد الجيوش وتجهيز العتاد من رجال وسلاح، لكنه يجد نفسه يقصر عن وصفه "وأما المعتصم، فلو شئنا أن نطيل الذكر، ونطنب في الوصف لوجدنا إلى ذلك أنهج السبل، وأسهل الطرق، وأتم الأسباب، وأكبر الأعوان، وأظهر الحجج"[10].

١- الجاحظ، رسالة صناعة القواد، ص ٣١٣

٢ - تم عرض القضية في الفصل الأول

٣ - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٠٤.

٤ - تحصن في القلاع والجبال، حتى أخذه المعتصم، فقتله، وصلبه إلى جنب بابك. الدينوري، الأخبار الطول، ص ٤٠٢. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٤٨.

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٧٨. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ١٥١.

٦ - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٤٥٤

٧ - خرب البلاد وسبى الذراري، فوجه إليه المعتصم الخيول في طلبه، ولم يزل به حتى أخذه وقتله، وصلبه إلى جنب بابك ومازيار. الدينوري، الأخبار الطول، ص ٤٠٢.

٨ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٥.

٩ - الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٧١

١٠ - المصدر نفسه، ص ٦٨.

كما أن لهذا الإعداد أثراً معنوياً ومادياً في إنجاح المعركة وتحقيق النصر[1] "**حسم به عرق البغي ونواجم الفتنة، الذي لم يزل الله يزيده في كل طرفة محبة ومع كل محبة هيبة، ومع كل نعمة شكراً، ومع كل شكرٍ فضلا. وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به، والقطب الذي عليه تدور الرحى** "[2]، مع أن المعتصم أخفق أصلاً في حسم قضية خلق القرآن، واضطر إلى إطلاق سراح الإمام أحمد بن حنبل، بعد إخفاقه في حمله على القول بخلق القرآن، وخوفاً من العواقب التي بدأت تلوح ملامحها، وأنذرت بما هو خطير[3].

ويسلط الجاحظ الضوء على جوانب من شخصية المعتصم كالقيام بأمر الرعية والعناية بشؤونها والمعرفة بإدارة الدولة، كما ساس الناس بالعدل والإنصاف "**وقد جمع الله لأمير المؤمنين مع كرم العروق وصلاح المنشأ، البعد عن إيثار الهوى، وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاق، ولا أخلاقاً أشبه بأعراق، من أفعال بأخلاقه وأخلاق بأعراق**"[4]. ومثل هذه العبارات قد فاحت منها رائحة الجبرية[5]، وهي الفكرة التي حاربها المعتزلة أشد حرب[6]. وهذا التمييز وتأكيد هذه الصفة يعني أن الله تعالى اختارها له دون ضدها. وهذا نزوع جبري بلا شك، إذ من المفترض أن يكون الله تعالى قد طبعه على البعد عن إيثار الهوى وعلى اتباع الهوى أيضا[7].

كما لا يفوت الجاحظ الحديث عما تميز به المعتصم من الحنكة العسكرية، وقضائه على الثورات التي تستهدف الإسلام وفتوحاته، وقد كبرت هذه الفتوحات في عين الجاحظ بسبب أنها أعلت من شأن الأمة الإسلامية كافة، كذلك فإن كثيرا من جهود المعتصم وجهها نحو منبع الحركات التي تستهدف الإسلام والمسلمين[8].

---

١ ـ الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٥.

٢ـ الجاحظ، رسالة في نفي التشبيه، جـ ١، ص ٣٠٦.

٣ـ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م). مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، ط ٢، دار هجر، الرياض: ١٩٨٨م، ص٣٤٠ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد).

٤ـ الجاحظ، رسالة في نفي التشبيه، جـ ١، ص ٣٠٨.

٥ـ الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف. فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا، والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل، وسمي ذلك كسبا، فليس بجبري. والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة أثرا في الإبداع والإحداث استقلالا: جبريا. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٨٥.

٦ـ الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٤٣

٧ـ الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص ٨٥

٨ ـ الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص ٣٥

أما الواثق الذي تولى الخلافة سنة (٢٢٧- ٢٣٢هـ / ٨٤٢- ٨٤٧م) بعد وفاة المعتصم، فلم يتناوله الجاحظ سوى في رسالة واحدة[1] معددا الصفات التي اتصف بها "**فهو الذي جمع بني المهابة والمحبة، وإيثار الحق، وحسن النية، والشغف بالعدل، وقمع الظالم، وقلة الرخصة، وإعمال اليقظة**"[2]. أما الصفات التي اتصف بها فتتمثل في أصالة الرأي، وصحة العقل، والحس اللطيف، والفهم العجيب ثم الجود، وطيب العشرة، وحسن الملكة[3].

واستمرت صلة الجاحظ بالسلطة حتى خلافة المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٧- ٨٦١م) الذي لم يكن متحمساً لعلاقته مع رجالات المعتزلة ومن ضمنهم الجاحظ[4]. فجاءت رواية الجاحظ عنه مبطنة فمن ذلك حديثه عن جور المتوكل بسبب أخذه النساء من ديار أوليائهن عنوة، ويرغم الرجال على التنازل له عن أمهات أولادهم، لا يخاف عقاب الخالق ولا نقمة الزمن " **كانت نخلة، جارية الحسين الخلال، قبل أن يتولى المتوكل الخلافة، تقعد بين يديه وتغنيه، فولدت للحسين ابناً، فلما ولي المتوكل الخلافة، طرقه ليلاً، فقال له الحسين: زرتنا، جعلت فداك، قال: اشتهيت أن اسمع غناء نخلة. فاخرجها إليه مطمومة الشعر، فقال: يا خلال أليس قد ولدت منك ابناً ؟ قال: بلى، قال: فأنا أحب أن تعتقها. قال: فإنها حرة، قال: فاشهد إني قد تزوجتها، قومي يا نخلة. فاشتد ذلك على الحسين، فعوضه منها خمسة عشر ألف دينار، وحول إليه نخلة** "[5]. ولم يكن المتوكل يفتقر إلى القيان إذ كان قصره مليء بهن، لكن نشوة السلطة والانحراف عن سبيل الحق والعدل. وموقف الجاحظ من

١ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JĀHIZ ,p٢٣٦.

٢ - الجاحظ، رسالة في مناقب بني العباس، ص ١٣

٣ - المصدر نفسه، ص ١٤

٤- إن السياسة التي سار عليها المأمون والمعتصم والواثق من تقريب المعتزلة واتخاذ الاعتزال مذهبا رسميا أثارت عليهم الناس، فقد استغل المأمون مذهب الاعتزال في مجابهة أعداء الدولة ومعارضيها، فحاول المأمون أن يعتمد على المعتزلة في التقرب إلى العلويين، فخلق مذهبا رسميا للدولة يمتاز بكونه سنيا بطبيعته ولكنه معتزلي بتفسيره، مما أوجد مذهبا وسطا بين أهل الحديث والشيعة والعلوية. لكن سياسة المأمون ضد أهل الحديث مثل أحمد بن حنبل أثارت الناس عليه مثل ما حدث في ثورة بغداد.

بالتالي جاء التحول في عهد المتوكل الذي أعلن إنهاء القول بخلق القرآن وفرض حظرا على المناقشة لترك السخط الذي أصاب الناس من الإجراءات التي قام بها الخلفاء الذين سبقوه ضد أهل السنة، وعلى الرغم من انهيار الاعتزال كمذهب رسمي إلا أنه لم تحدث ردة فعل ضده كما حدث ضد أهل السنة.

لقد كانت السياسة الجديدة التي سار عليها المتوكل نابعة من الظروف السياسية التي تتمثل في الحصول على عضد شعبي من الناس والفقهاء والعلماء ضد العلويين والأتراك، فقد حاول أن يحد من نفوذ الأتراك المتزايد. ومن أجل ذلك فقد كان يحضر صلوات الجمعة والأعياد ويوسع المساجد. لقد وصل المعتزلة للسلطة وظلوا بها حتى عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م لكن لم تفلح عقيدتهم في أن تكسب الناس إليها ولا أن تجذبهم، فظلوا دون سند مما سهل على المتوكل أن ينهي أمرهم، كما أن المجتمع نفسه كان يرفض الاعتزال خاصة أنهم بسبب ثقافتهم اليونانية التي تعتمد على الاستدلال العقلي والمنطق كانوا ينظرون بتعالي على الناس. انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٩٦. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣. فوزي، الخلافة العباسية، جـ١، ص٢٩٢- ٢٩٧.

٥- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١١٢

المتوكل ينبع من موقف المتوكل نفسه من المعتزلة حيث أن هذا كان سبيل خلفاء بني العباس جميعاً، منذ عهد المهدي[1].

وحين تناول الجاحظ هذه الظاهرة في رسالته الجواري والغلمان ورسالة الفتيان، تناول أغلب الأمثلة من العصر الأموي وليس العباسي كما شاهدنا على الرغم من انتشارها بشكل كبير في العصر العباسي بشكل يفوق حتى العصر الأموي[2].

كما أن الجاحظ لم يتناول تفاصيل حياة المتوكل في كتبه ورسائله وذلك بسبب أن المتوكل وقف موقفاً معادياً من المعتزلة ورجالاتها، وعلى الرغم من فتور علاقة الجاحظ بالمتوكل إلا أن علاقة الجاحظ بالسلطة لا سيما الوزراء منهم استمرت حتى وفاته، فأهداهم كتبه ورسائله ومصنفاته، فأجزلوا له العطاء بدورهم وأفاضوا عليه[3].

وهكذا يمكن القول بأن علاقة الجاحظ بالخلفاء جعلته يصور وينقل الكثير من المشاهد عنهم وعن صفاتهم، كما جعلته يكون على مقربة من الأسباب التي كانت تقف وراء ذياع صيت وشهرة هذا الخليفة أو ذاك وكذلك العكس، إضافة إلى كشفها عن ميول الجاحظ واتجاهاته السياسية والفكرية في بعض الأحيان، وأظهرت كتاباته بعض الحقائق التاريخية الخاصة بهذه الفترة خاصة التي كان مقرباً فيها من خلفاء بني العباس.

ثالثاً: صورة الخلفاء العباسيين وسياستهم

رسم الجاحظ صورة خاصة للعباسيين بسبب قربه من البلاط، فأتاح له ذلك الاطلاع على خفايا الأمور، فروى الجاحظ العديد من الروايات التي ميزت الخلفاء العباسيين في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية فقد اهتم الخلفاء العباسيون بتلك النواحي، مما جعل العاصمة بغداد مركزا مزدهرا سعى إلى اجتذاب العديد من الفنانين والتجار والصناع الذين أبدعوا في مجال الاقتصاد، وكذلك الأدباء والعلماء في شؤون اللغة والفلسفة والقانون الذين تناظروا في حضرة الخلفاء فتناظروا في قضايا السياسة والدين[4].

١- غيوه، يوسف. حرائر البلاط العباسي في كتابات الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١١، جامعة منتوري، الجزائر: ١٩٩٩م، ص ١٩٩ (سيشار إليه فيما بعد: غيوه، حرائر البلاط العباسي).

٢- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٣

٣- الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص. ٧٦.

٤ - انظر: ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص ٢٧. نوري، الجاحظ، ص ١

وعندما نتناول الجانب الذي لعبه الجاحظ سياسياً نجد أنه حدد من خلال موقفه من الدعوة العباسية أشكال المعارضة التي يمكن أن تجابه الخليفة بأنها لا تعدو أن تكون واحدة من عشر حالات، نعتها جميعاً بنعوت توحي بالسلبية وعدم المشروعية[1] فقال:"... **فإن السلطان لا يخلو من متأول ناقم، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معدول عن الحكم زار، ومن متعطل متصفح، ومن معجب برأي ذي خطل في بيانه، ومن لئيم قد أفسده الإحسان، وصاحب فتنة خامل في الجماعة، رئيس في الفرقة** "[2]. وهذه الأمثلة لا تعدو أن تكون نظرية ساقها الجاحظ دون أن يعطي أمثلة عليها. كما يتبدى رفض الجاحظ لفكرة الخروج على الحاكم أو معارضته، وأنها في مجملها أمور سلبية، إلا أن الجاحظ لم يوضح هنا كيفية توجيه الحاكم إذا أخطأ أو تقويمه إذا اعوج[3].

فكان نهجه السياسي يميل نحو العباسيين، مما جعل صورة العباسيين مشرقة في كتاباته، وعلى الرغم أن الجاحظ معتزلي إلا أن الولاء السياسي طغى على الولاء الديني لذا فقد تنازل عن الكثير من المبادئ التي نادى بها المعتزلة وخاصة في مسألة الإمامة من أجل كسب ود الخلفاء العباسيين[4] "**انفراد السيد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة. وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة، وتكون الألفة، ويصلح شان الجماعة. وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء، وانقطعت الأهواء**"[5].

لقد أطرى على النهج السياسي والفكري للدعوة العباسية، وأيد مذهبهم ولم ير الخروج على الدولة أو استعمال السيف ضدهم[6]، ودافع عن العباسيين بقوله: " **وهكذا تدبير الخلفاء ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولو كان إذا لم يفهموا عن الأئمة لم يعترضوا عليهم ولم يخطئوهم ولم يجهلوهم كان أيسر**"[7] فكان وقوف الجاحظ إلى جانب السلطة العباسية يتخذ صوراً وأشكال مختلفة من ضمنها التشهير بهم وبأخلاقهم، فعرضه لظاهرة البخل التي أقرها على خصوم العباسيين وأعني بهم

---

١ - نوري، الجاحظ، ص ١٠

٢- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٤.

٣ - إن مسألة عدم جواز الخروج على السلطان بل تأييده حتى ولو كان فاجرا وجدت تأييدا من بعض الفقهاء الذين يرون وجوب تأييد إمامته في حالة أنه ملك أمر المسلمين حتى وأن كانت خلافته غلبة وقهراً. الزويري، الإمامة، ص ٦٠.

٤- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١٩

٥- الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٥١.

٦ - فوزي، الجاحظ مؤرخا، ص ٤١٩.

٧ - الجاحظ، العثمانية، ص ٤١٩

العناصر الفارسية[1]، إذ أججت ثورته على البخلاء والبخل عوامل سياسية خطيرة من ذلك حملته على الشعوبية التي امتدح فيها جود العرب مقابل بخل الموالي. وليس ثمة إهانة في نظر العربي أقبح من البخل[2]. فالجاحظ بصفته كاتبا شبه رسمي للسلطة العباسية كان عليه بث الدعاية وحشد التأييد للسلطة، كما كتب العديد من الرسائل الأخرى لأن السلطة أرادت ذلك[3].

وللجاحظ آراء عديدة دافع بها عن العباسيين، وأثنى على منجزاتهم في كتبه ورسائله، من قوله: **"أنتم تزعمون أن عبد المطلب أحلم الناس، وكذلك العباس بن عبد المطلب. قلنا إن الأحنف كان الحلم سيد عمله، فبان من سائر أعماله؛ ومحاسن عبد المطلب، وخصال العباس في المجد والشرف كانت متكافئة متساوية، كل خصلة منها تنتصف من أختها، وكانت كما قال الشاعر**

أني غرضت إلى تناصف وجهها ... غرض المحب إلى الحبيب الغائب"[4]

كما أن موقفه يهدف إلى الرفع من شأن بني العباس وتقليل شأن الأمويين **"ولم يكن في أصحابنا مذ هلك أبو العباس إلى ملك المتوكل إلا سليم الجوارح نقيّ من الابن صحيح الأعضاء، جميل المنظر، بهي الرواء. فأما الصلع[5] فإنه انقطع بعد مروان بن الحكم، فلم يكن في ملوكهم ولا في خلفائنا أصلع إلى يومنا هذا"**[6].

لعب الجاحظ دوراً سياسيا يتمثل في جمع ولاء الناس للخليفة العباسي من خلال تناول موضوع الخروج على السلطان[7]، وتحديداً في رسالة "العثمانية" فالجاحظ كتب رسالته مسايرا للتطور السياسي في الدولة العباسية الذي بدأ يأخذ موقفا مناوئا من العلويين فصار الجاحظ من مناصري ومؤيدي حزب العثمانية[8]. فجاءت الرسالة تأكيدا لمواقف السلطة ونظرتها للقضايا

---

١ - احتوى كتاب البخلاء على التعريض شمل حتى حيوانات مرو من أجل أن يعمم تلك الظاهرة على كافة أهل مرو. انظر مثلا: ص ٣٧، ص ٣٨، ص ٤٠، ص٤٣، ص٤٩.

٢ - جبر، الجاحظ ، ص٦٥

٣ - نوري، الجاحظ، ص ٢.

٤- الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٣١٢

٥- يشير اليعقوبي أن الصلعاء هم الذين يكذبون على المنابر بقوله: "قد سميت الكذبة، على المنبر، الصلعاء فإذا أوعدتكم أو وعدتكم، فلم أف لكم بوعدي ووعيدي، فلا طاعة لي عليكم " اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٣٠٦. والجاحظ هنا يعرّض بالأمويين.

٦- الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٣٢٠

٧ - تناول المسعودي رسالة الجاحظ في العثمانية من أوجه مختلفة حيث يأخذ على الجاحظ أنه حل نفسه من فضائل علي، ورأي المسعودي نابعا من ميوله الشيعية. مروج الذهب، جـ ١، ص٤٥٠.

٨ - بلاء الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٥

التي تواجهها مما عزز من صمودها أمام خصومها السياسيين[1]. وجاءت معالجته لها بصورة تقريرية؛ فالخروج على السلطان أمر غير ممكن عملياً ونظرياً. ومن يقوم بذلك لن يلقى إلا الإخفاق ليصل إلى النتيجة التي مؤداها ضرورة القبول والتسليم بالسلطان القائم فعلاً، وذلك بلا ريب أهم ما قدمه الجاحظ فكرياً للسلطة العباسية[2]. ونسبة عثماني تعني " **علاقة مع أسرة الخليفة عثمان سواء عن طريق القرابة أو الولاء، ويشتق معناها التاريخي من أنها تدل عادة على الانتصار للخليفة المقتول، واعتقاد المسلم ببراءة الشهيد، والمطالبة بالتكفير عن دمه المهراق[3]، وهذه أقل العواطف التي كانت تجول في نفس العثمانيين**"[4].

ويبدو أن السياسة التي اتبعها بعض الخلفاء العباسيين وخاصة المأمون والمعتصم بتقريب العناصر الأجنبية على حساب العناصر العرب، قد شكلت ردة فعل معارضة من قبل العناصر العربية التي رأت حال العرب في الدولة الأموية وحالهم في الدولة العباسية، فتشكل حزب من هؤلاء العرب معارض للخلافة العباسية وهو ما عبّر عنه الجاحظ بالنابتة. كانت ردة فعل السلطة العباسية على هذا الاتجاه الجديد رداً سياسياً وفكريا تمثل بتكليف عدد من الأدباء والعلماء للرد على الحزب وفكره[5].

كان الجاحظ على رأس هؤلاء المدافعين عن أحقية بني العباس، ونقض أفكارهم، فجاء موقفه من الأمويين في إطار تبرير وصول العباسيين للسلطة[6]. . لقد حمل الجاحظ على الأمويين لسببين بارزين هما لأنهم أعداء بني العباس أولياء نعمته، ثم لأنهم قتلوا المعتزلي غيلان الدمشقي[7]. ففي رسالة النابتة مثلاً كان الجاحظ عنيفاً في الرد على هذه الفئة التي كانت تتكاثر يوماً بعد يوم[1].

---

١ - الزويري، الإمامة، ص ٣٩

٢ - نوري، الجاحظ، ص ٩

٣ - المراق. لسان العرب، جـ١٠، ص ٣٦٦.

٤ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٤.

٥- الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٠٠.

٦- قام الجاحظ بكتابة مجموعة من الرسائل المؤيدة لخلافة بني العباس مثل النابتة والعباسية والعثمانية، وفضل هاشم على عبد شمس، وتصويب الحكمين. وقد فعل ذلك تقربا من العباسيين أصحاب السلطان. نوري، الجاحظ، ص ٥

٧ - أبو مروان: غيلان بن مسلم الدمشقي(١٠٥ هـ / ٧٢٣م) تنسب إليه فرقة " الغيلانية " من القدرية. وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، وفي الإمامة إنها تصلح في غير قريش، وكل من كان قائما بالكتاب والسنة فهو مستحق لها، ولا تثبت إلا بإجماع الامة. ومن كلام غيلان: " لا تكن كعلماء زمن الهرج إن وعظوا أنفوا، وإن وعظوا عنفوا ".وله رسائل، في نحو ألفي ورقة. تاب عن القول بالقدر، على يد عمر ابن عبد العزيز، فلما مات عمر جاهر بمذهبه، فطلبه هشام بن عبد الملك، وأحضر

أما في مسألة الإمامة فبعد أن كان يشترط في الخليفة أن يكون من أبناء الحرائر كما كان زمن الدولة الأموية فإن رأي الجاحظ بناءً على ما حدث من تطورات سياسية في الدولة العباسية فلم يعد يشترط في الخليفة أن يكون من أبناء الحرائر بل يحق لأبناء الإماء أن يتولوا الخلافة[2]، وهذا ما دعا الجاحظ إلى الإشارة إلى خلفاء بني العباس الذين كانت أمهاتهم من الحرائر بقوله: " **وليس من خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة: السفاح، والمنصور، والأمين، والباقون كلهم أبناء الجواري، وقد علقت الجواري لأنهن يجمعن عز العرب، ودهاء العجم**"[3]. فلم تعد الجارية جسداً بل أصبحن كما يصورهن الجاحظ يناظرن العلماء ويطارحن الشعراء في النظم[4].

إن الأسلوب الكلامي الذي قام به الجاحظ من أجل تبرير حق العباسيين في الإمامة تمثل في جوانب مختلفة، مثل ذلك ما قام به في ذكر براعة العباسيين في الخطابة كمنهج دعائي يأخذ البعد السياسي لهم، معرباً عن إعجابه بقدراتهم[5]. فاجتهد في وصف خصال الخلفاء العباسيين مثل المنصور في تمثيله بعض المواقف التي أظهر فيها كرم عطائه وجود سخائه[6]، كما وصفه بأنه "داهياً أريباً، مصيباً في رأيه سديداً، وكان مقدماً في علم الكلام، ومكثراً من كتب الآثار"[7].

كما عمل في تناوله لموضوع الإمامة (الخلافة) التأكيد على أحقية بني العباس بها "**والإمامة اليوم لا تصلح في الأخوة ولو صلحت في الأخوة كانت تصلح في ابن العم، ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا في الولد، وفي هذا القياس إنها بعد أعوام لا تصلح إلا ببقاء الإمام نفسه آخر الأبد**"[8].

الأوزاعي لمناظرته، فأفتى الأوزاعي بقتله، فصلب على باب كيسان بدمشق. ابن النديم، الفهرست، ص ١٤٩. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٣٩.

١- جبر، الجاحظ، ص٣٥.

٢- أغلب الخلفاء العباسيين كانوا من أبناء الإماء التي صار لهن شأن في الدولة العباسية. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٩٢.

٣- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٨٨

٤- الجاحظ، رسالة مفاخرة الجواري، جـ ٢، ص ١٥٦. غيوه، يوسف. المرأة الجارية ودورها الاجتماعي والثقافي في المجتمع العربي الإسلامي من خلال كتابات الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٥، جامعة منتوري، الجزائر: ٢٠٠١م، ص ٧ (سيشار إليه فيما بعد: غيوه، المرأة الجارية).

٥- نوري، الجاحظ، ص ٩

٦- المرجع نفسه، ص ٩

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٦٧.

٨- الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، ص ٤٧٢

فمن أجل تأكيد أحقية بني العباس في الخلافة، قام الجاحظ بعرض آرائه في مسألة الإمامة في رسائله ومصنفاته بهدف إيجاد مبرر شرعي لتوليهم الخلافة " وقد زعم أناس أن **الدليل على صدق خبرهما(يعني أبا بكر وعمر) في منع الميراث وبراءة ساحتهما[1]، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليهما.! قد يقال لهم: لئن كان ترك النكير دليلا على صدقهما، إن ترك النكير على المتظلمين والمحتجين عليهما والمطالبين لهما دليل على صدق دعواهم أو استحسان مقالتهم**"[2]. استند أبو بكر وعمر بن الخطاب- رضي الله عنهم - بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم "**لا نورث، ما تركنا صدقة**" فالمال الذي خلفه النبي لم يجعله أبو بكر- رضي الله عنه - لنفسه ولا لأهل بيته وإنما هذا المال هو صدقة لمستحقيها، وأن عمر قام بتسليم هذا المال إلى علي والعباس يفعلان فيه ما كان النبي يفعله وأن يجعلانه صدقة، وأن عليّاً لما ولي الخلافة لم يغيرها عما عمل فيها في عهد الخلفاء الثلاثة ولم يتعرض لتملكها ولا لقسمة شيء منها بل كان يصرفها في الوجوه التي كان من قبله يصرفها فيها[3].

كذلك فإنه مدح في مناسبات عديدة الهاشميين بصورة عامة والخلفاء العباسيين بصورة خاصة، مشيراً إلى مناقبهم ومآثرهم، فقد كان دور الجاحظ السياسي بتكليف من السلطة العباسية[4] المقرب منها[5]. إذ وضع رسالة " فضل هاشم على عبد شمس"، أفاض فيها في ذكر مناقب بني هاشم ومفاخرهم[6].

نبهت الرسالة إلى مآخذ عديدة على الأمويين لم يقع العباسيون فيها، فعد ذلك منقبة وفضلاً لهم[7]. وإذا ما امتدح أمراً قام به الخلفاء العباسيون عاب على الأمويين عدم إتيانهم إياه،

١- سألت فاطمة أبا بكر أن يقسم لها ميراثها، فقال أبو بكر: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث، ما تركنا صدقة". فغضبت فاطمة فهجرت أبا بكر، وعاشت ستة أشهر. وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك أبوها من خيبر وفدك، وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر عليها ذلك وقال: لست تاركا شيئا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ. فأما صدقته بالمدينة فدفعها عمر إلى علي وعباس، وأما خيبر وفدك فأمسكها عمر وقال: هما صدقة الرسول صلى الله عليه وسلم، كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه، وأمرهما إلى من ولي الأمر. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١٠، ص ٧٩. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٣

٢- الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٤٦٧

٣- انظر: الواقدي، المغازي، جـ ٢، ص ٧٠٦، ٧١٣، ٧٢١، ابن خياط، تاريخ، ص ٨٥. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٢٣. أبو الفداء، المختصر، ص ٩٤.

٤ - الجوزي، مكانة العقل، ص ٣٠٥

٥ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٥، ص ١٩٣.

٦- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٣- ٤٢٤.

٧- نوري، الجاحظ، ص ٤

مثل قوله إنه لم يقم أحد من ولد العباس بالملك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية، وتنقّص بذلك من فروسية الخلفاء الأمويين[1].

مما سبق نستنتج أنه كان للجاحظ فكر سياسي عبر عنه من خلال رسائله، بعضها تصريحا وبعضها تورية، كما أن موقفه السياسي يخضع لاعتبارات شخصية في بعض الأحيان بسبب قربه من السلطة العباسية وكذلك لاعتبارات عامة في أحيان أخرى.

إضافة إلى ذلك مدح الجاحظ الدولة العباسية مرارا بقوله: "**ولنقل إنا لم نر في صدر هذه الدولة المباركة العباسية، ولا في تاريخها وأيامها إلى هذه الغاية، فتى اجتمعت له فضائل الملوك وآدابها ومكارمها ومناقبها، فحاز الولاء من هاشمٍ والخصيص من خلفاء بني العباس الطيبين، والتبني من المعتصم بالله** "[2]

لم تتوقف تلك الصورة على مجرد المدح والثناء، بل نجد الجاحظ مدافعاً عن الخلافة العباسية، ومبرراً لوجودهم في السلطة ومؤكدا لحقهم "**فأين أنتم من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس، والحسن بن علي؟ وأين أنتم من جود خلفاء بني العباس كمحمد المهدي، وهارون، ومحمد بن زبيدة، وعبد الله المامون، بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كبني برمك أعظم من جود الرجلين اللذين ذكرتموهما، بل من جميع ما جاء به خلفاء بني أمية**"[3]

أما عن حق العباسيين في الخلافة فنجد الجاحظ يورد بين الحين والآخر روايات لتأكيد ذلك، فقد أشار إلى ما جاء على لسان عمرو بن العاص مخاطبا عبد الله بن العباس في قضية التحكيم[4] "**قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس: إن هذا الأمر الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء، وقد بلغ الأمر بنا وبكم ما ترى، وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبرا، ولسنا نقول ليت الحرب عادت، ولكنا نقول ليتها لم تكن كانت. فانظر فيما بقي بغير ما مضى، فإنك رأس هذا الأمر بعد علي، وإنما هو أمير مطاع، ومأمور مطيع، ومشاور مأمون، وأنت هو** "[5].

وعندما ننتقل إلى ميول الجاحظ نجدها عباسية بحكم أنه عاش في كنف السلطة مقربا إليها يتكلم باسمها ويحاج باسم الخليفة، ونستنتج ذلك الميل الصريح من خلال ما أورده من

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤.

٢- التاج (منسوب للجاحظ)، ص ١٣٥

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٧

٤- موقف الجاحظ بسبب ما قام به عمرو بن العاص من خلع علي بن أبي طالب من الخلافة وتثبيت معاوية، وقد عرضنا لذلك في الفصل السابق بالدولة الأموية.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٠٤

حوار بين عبدالله بن العباس وعمرو بن العاص " قام عمرو بن العاص بالموسم، فاطرى معاوية وبني أمية، وتناول بني هاشم، ثم ذكر مشاهده بصفين، فقال له ابن عباس: يا عمرو، إنك بعت دينك من معاوية فأعطيته ما في يدك، ومنّاك ما في يد غيره، فكان الذي أخذ منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذت منه دون ما أعطيته، وكل راض بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك تتبعك فيها بالعزل والتنقص، حتى لو أن نفسك فيها القيتها إليه، وذكرت مشاهدك بصفين فما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولا نكتنا فيها حربك. وإن كنت فيها لطويل اللسان، قصير السنان. آخر الحرب إذا اقبلت، وأولها إذا أدبرت. لك يدان: يد لا تبسطها إلى خير، ويد لا تقبضها عن شر. ووجهان: وجه مؤنس، ووجه موحش. ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري أن يطول حزنه على ما باع واشترى. لك بيان وفيك خطل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد. فاصغر عيب فيك أكبر عيب في غيرك. فقال عمرو: أما والله ما في قريش احد أثقل وطأة علي منك، ولا لأحد من قريش عندي مثل قدرك"[1].

يرى الجاحظ أن بني العباس أرفع شأنا عن بقية الناس لأنهم من آل البيت ويلمز هنا بكلامه بني أمية مما أدى إلى بغضهم وحسدهم " عن سعيد بن جبير قال: قدت ابن عباس حتى أدخلته على ابن الزبير، قال: أنت الذي تؤنبني؟ قال: نعم، لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ليس بمؤمن من بات شبعانا وجاره طاو. فقال له ابن الزبير: لمن قلت ذلك؟ إني لأكتم بغضكم أهل البيت مذ اربعين سنة. فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنهما عسيبا نخل، ثم قال لابن الزبير: نعم فليبلغ ذاك منك، ما عرفتك. ولقد اجلت الرأي ظهرا لبطن وفكرت في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده، وكانت وخزة في قلبه فلم يبدها. وفروع بني هاشم حول الحرم باسقة، وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية، ومجالسهم من أعاليها عامرة، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة، وأنجمها بالهدى زاهرة. فلما خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكن في نفسه"[2]

وكثيراً ما نجد الجاحظ يقارن بين خلفاء العباسيين أمثال المنصور والرشيد والمعتصم والواثق، وخلفاء بني أمية أمثال مروان بن الحكم ومعاوية ويزيد وعبد الملك مقارنة تبين عظمة العباسيين وقدرتهم وضعف الأمويين.[3]

وقد تولى أفراد البيت العباسي الحرب بأنفسهم أمثال عبد الله بن علي، وصالح بن علي، وداؤد بن علي، وعبد الصمد بن علي، والمنصور. وفي هذا إسقاط للدعوة التي تقول أن الفرس هم الذين أسقطوا دولة الأمويين " وقد بلغتكم شجاعة أبى إسحق المعتصم ووقوفه في مشاهد

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٠٦

٢- الجاحظ، رسالة الحاسد والمحسود، ص ١٢٠

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٦٠ وما يليها

الحروب بنفسه حتى فتح الفتوح الجليلة، وبلغتكم شجاعة عبد الله بن علي وهو الذي أزال ملك بني مروان وشهد الحروب بنفسه. وكذلك صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله "[1].

ويبرر الجاحظ أحقية العباسيين بالخلافة بسبب أن من خصالهم الملك، كما يتبنى موقفهم حول شرعية خلافتهم " **إلا من بني هاشم، فإن ملكهم العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله- صلى الله عليه وسلم، والعم وارث، والعم أب، ولا نعلم أمة تدعي مثل هذا لملكها**"[2].

يرى الجاحظ أن الخلافة في بني العباس حق لهم، وأن الأمويين ليسوا سوى مغتصبين لها، وأنها عادت لهم لتكون فيمن يستحقها، كما يؤكد الجاحظ على حقيقة مهمة وهي انتزاع العباسيين الملك من بني أمية بفضل شجاعتهم وحنكتهم. " **ويفخر بنو العباس على بني مروان، وهاشم على عبد شمس بأن الملك كان في أيديهم فانتزعوه منهم وغلبوهم عليه بالبطش الشديد وبالحيلة اللطيفة ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدهم تدبيرا وأبعدهم غورا ومن نشأ في الحروب وربى في الثغور ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود** "[3]

كما يرى الجاحظ أن المفاخر ليست بكثرة الولد، فلو كان كذلك " **وإن كان الفخر بكثرة العدد، فإنه من أعظم مفاخر العرب، فولد علي بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس** "[4].

بهذه الملاحظات كشف لنا الجاحظ عن حقائق مهمة تتعلق بالثورة العباسية ولو أن مستشرقي ومؤرخي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد انتبهوا إلى هذه الملاحظات لما وقعوا أسارى التفسير العنصري للثورة ولما برزوا دور الفرس وغمطوا دور العرب حيث قادهم هذا التفسير إلى تخريجات خاطئة عن مطالع العصر العباسي[5].

كما يؤخذ على الجاحظ أنه أظهر هذا الميل الشديد والتحيز للدولة العباسية على الدولة الأموية بالرغم من أن للدولة الأموية الكثير من الحسنات، ولعل تقلبات الأحوال وتغيرها كان له أثر في تحول الجاحظ، وقد عمل الجاحظ في أغلب الأحيان بأن يخفي ميله الحقيقي واتجاهه الذي ظهر جلياً أيام الدولة العباسية.

١ـ الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٢ـ الجاحظ، رسالة الأوطان والبلدان، ص ١٠٧

٣ـ الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٤

٤ ـ الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٥

٥ ـ فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١٤

القضية بالنسبة للجاحظ إيجاد مسوغ شرعي للعباسيين للاستيلاء على الخلافة؛ كما عمل في تسويغه وتبريره على نقد المسلمين الذين تواطأوا مع النابتة[1] بصورة شعورية أو لا شعورية[2] "ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة، ومراتب متباينة: من قاتل، ومن شاد على عضده، ومن خاذل عن نصرته. والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته. وإنما الشك منا فيه وفي خاذله، ومن أراد عزله والاستبدال به. فأما قاتله والمعين على دمه والمريد لذلك منه، فضلال لا شك فيهم، ومراق لا امتراء في حكمهم. على أن هذا لم يعد منهم الفجور، إما على سوء تأويل، وإما على تعمد للشقاء"[3]. فكانت رسالة النابتة ترجمة لتوجه الدولة الجديد نحو الوقوف في وجههم، وتعبيرا صريحا من الجاحظ عن موالاته للعباسيين واستعداده للدفاع عنهم حتى وإن تعارض ذلك مع المبادئ التي نادى بها[4].

لقد تشتت الجاحظ بين ميوله السياسية ومعتقده الاعتزالي حتى في مبادئ الإمامة التي طالما كانت موضع اعتزاز عند المعتزلة، فمال للجانب السياسي على حساب عقيدته، مما جعله في موقف يتجاذب طرفاه عقيدته التي طالما أمن بها ودافع عنها والطرف الآخر السلطة العباسية التي أصبح إن جاز التعبير أديبا رسميا لها. كما أن الجاحظ لم ينكر دور النسب في تولي الخلافة، وإن كان أنكره عند الأمويين لكن عند العباسيين خالف رأي المعتزلة ويتضح ذلك كما أسلفنا في رسالة العثمانية[5]. كما جاء حديثه عن الدولة العباسية متسما بالحماس لكل ما هو عباسي ومعتزلي[6].

١ - أستنكر الجاحظ مزاعم العوام والنابتة وشجب كل أشكال الدعوة إلى بني أمية أو تسويغ أفعالهم والدفاع عنهم. هياجنه، الجاحظ مؤرخا، ص ٢١

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٧٢

٣ - الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٠.

٤ - الزويري، الإمامة، ص ٣٩.

٥ - نوري، الجاحظ، ص ٢١

٦ - الدروبي، رسالة مناقب بني العباس، ص٣٦